٢٠٢٣

الإرهاب والتكنولوجيا.. كيف خدمت التقنيات الإرهابيين؟

سعود الشرفات
كاتب أردني

كيف توظف الجماعات الإرهابية شبكة الإنترنت ومنصات التواصل لغايات الدعاية والتجنيد؟

الإنترنت أداة أحدثت ثورة جذرية في العالم والمجتمع منذ ابتكارها في التسعينيات. واليوم، أصبح أكثر من (٥) بلايين شخص في جميع أنحاء العالم قادرين على الوصول إليها. وفي حين أنّ هذه التكنولوجيا تأتي مع العديد من الابتكارات الإيجابية، إلا أنه يمكن استخدامها بشكل سلبي من قبل المنظمات الإرهابية لنشر رسائل دعائية بسهولة أكبر. ورغم أنّ شبكة الإنترنت جلبت تغييراً إيجابياً يساعد على ربط العالم، إلا أنها لم تخلُ من سلبيات. ويمكن القول إنّ أحد أهم الجوانب السلبية هو استخدام المنظمات الإرهابية للإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة لتجنيد الإرهابيين.

يمكن العثور على جذور الإنترنت الحديثة في أوائل السبعينيات، خلال الحرب الباردة، عندما كانت وزارة الدفاع

«تملك شبكة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي عدداً من السمات العامة التي تتفاعل وتتراكم لتساعد في عمليات التجنيد»

الأمريكية قلقة بشأن الحد من ضعف شبكات الاتصالات الخاصة بها أمام الهجوم النووي فقررت اللامركزية في النظام بأكمله من خلال إنشاء شبكة مترابطة من شبكات الكمبيوتر.

وكما هو معروف في أدبيات الإنترنت، اخترع (تيم بيرنرز لي)، وهو عالم بريطاني، في عام ١٩٨٩ الشبكة العالمية (WWW)، أثناء عمله في «المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية» (CERNE European Organization for Nuclear Research) وقد صممت الشبكة في الأصل وطورت لتلبية الطلب على تبادل المعلومات الآلي بين العلماء في الجامعات والمعاهد في جميع أنحاء العالم.

وفي ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٩٣، أتاحت المنظمة برنامج الشبكة العالمية للاستخدام العام. وفي وقت لاحق، أتاحت إصداراً بترخيص مفتوح، وهي طريقة أكثر يقيناً لزيادة انتشاره إلى أقصى حد. وسمحت هذه الإجراءات للإنترنت بالازدهار؛ حيث كانت المنظمة رائدةً في ابتكار تكنولوجيا الإنترنت، ابتداءً من أوائل ثمانينيات القرن الماضي.

بعد (٢٠) عاماً من التطوير والاستخدام من قبل الباحثين الأكاديميين توسعت شبكة الإنترنت بسرعة وغيرت طابعها عندما تم فتحها للاستخدام التجاري. وبحلول منتصف التسعينيات، كانت الشبكة تربط أكثر من (١٨,٠٠٠) شبكة خاصة وعامة ووطنية، مع زيادة العدد يومياً. وكان هناك حوالي (٣,٢) مليون حاسوب مضيف، وربما ما يصل إلى (٦٠) مليون مستخدم منتشرين في جميع القارات السبع.

يقدر عدد مستخدمّي الإنترنت حتى آذار (آب) ٢٠٢١، أكثر من (٥) مليار مستخدم، فيما بلغ عدد مواقع الإنترنت أكثر من (١,٩) مليار حتى تاريخ ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٢١ وفي شباط (فبراير) ٢٠٢١ كانت نسبة من استخدموا الإنترنت من سكان العالم حوالي (٦١,٨٪)، بينما كانت تبلغ أقل من (١٪) عام ١٩٩٥، علماً بأنّ أول موقع نشر على الإنترنت كان من

بحلول عام ٢٠٠٠ كانت جميع الجماعات الإرهابية تقريباً قد أقامت وجودها على شبكة الإنترنت

قبل «المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية» المعروفة اختصاراً بـ (cern) بتاريخ ١٦ آب (أغسطس) ١٩٩١ باسم «Info.cern.ch». ومتوسط ما يقضيه الشخص على شبكة الإنترنت (٦) ساعات (٤٣) دقيقة كل يوم، بمعدل (١٠٠) يوم في السنة.

مع ازدهار وتطور شبكة الإنترنت، تم الترحيب عالمياً بها باعتبارها رابطة للثقافات ووسيطاً للشركات والمستهلكين والحكومات للتواصل مع بعضها البعض، وتوفر فرصاً لا مثيل لها لإنشاء منتدى يمكن فيه لمجتمع (القرية العالمية) «أن يلتقي ويتبادل الأفكار، ويحفز الديمقراطية ويحافظ عليها في جميع أنحاء العالم. وتم النظر إليها من الخبراء والأكاديميين في مختلف التخصصات على أنها قاطرة لسيرورة العولمة، وتأثيراتها الإيجابية.

ومع ذلك، ومع النمو الهائل في حجم الشبكة واستخدامها، فإنّ الرؤى الطوباوية للوعد بالإنترنت والعولمة اليومية الإيجابية تواجه تحديات بسبب انتشار المحتوى الإباحي والعنيف على شبكة الإنترنت واستخدام المنظمات والجماعات المتطرفة، والإرهابية من مختلف الأنواع للإنترنت.

«يحتوي موقع الجيش الجمهوري الإيرلندي على صفحة يمكن للزوار تقديم تبرعات ببطاقات الائتمان عليها»

وشبكة الإنترنت؛ بطبيعتها هي ساحة مثالية لنشاط الجماعات الإرهابية. رغم أنّ امتلاكها يتطلّب توفر بعض الإمكانيات المتاحة؛ إذ ينبغي امتلاك جهاز حاسوب وهاتف ذكي، والقدرة على القراءة والكتابة، وربما معرفة لغات أخرى .

تملك شبكة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي عدداً من السمات العامة التي تتفاعل وتتراكم لتساعد في عمليات التجنيد. ومن أبرز سمات شبكات الإنترنت التي يستغلها الإرهابيون:

- سهولة الوصول، ورقابة حكومية أقل.
- توفر جمهور ضخم منتشر في جميع أنحاء العالم.
- تأمين عدم الكشف عن هوية الاتصالات .
- تسمح بالتدفق السريع للمعلومات.
- توفر تطوير وصيانة غير مكلفة بوجود شبكة الإنترنت.
- تأمين بيئة متعددة الوسائط (القدرة على الجمع بين النص والرسومات والصوت والفيديو والسماح للمستخدمين بتحميل الأفلام والأغاني والكتب والملصقات).

طبعاً؛ هذه السمات لم تمر دون أن يلاحظها أحد من قبل الجماعات الإرهابية، بغض النظر عن توجهها السياسي من الإسلاميين والماركسيين والقوميين والانفصاليين والعنصريين والفوضويين: كلهم يجدون الإنترنت مغرياً.

اليوم، تحتفظ جميع المنظمات الإرهابية Foreign Terrorist Organizations (FTOs) النشطة تقريباً والبالغ عددها (٧٣) جماعة حسب تصنيف وزارة الخارجية الأمريكية السنوي، بالمواقع الإلكترونية، ويحتفظ العديد منها بأكثر من موقع ويب واحد وتستخدم لغات متعددة، ومختلفة، علماً بأنّ عدد الجماعات الإرهابية حسب هذا التصنيف يتغير سنوياً؛ إذ يخضع للمراجعة وإعادة التقييم حيث يمكن أن تخرج منه جماعات، أو تدخل إليه جماعات.

كيف يستخدم الإرهابيون الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي؟

يُعرف تجنيد الإرهابيين بأنه وسيلة أو أسلوب من النشاط يلتمس من الأفراد المشاركة في حركة أو جماعة متطرفة أو

ارتكاب أعمال غير قانونية لصالح الجماعة الإرهابية. وهناك (٨) طرق مختلفة، وإن كانت متداخلة في بعض الأحيان، يستخدم بها الإرهابيون الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. وهذه الطرق هي:

١- التجنيد والتعبئة: أعتقد بأنّ تنظيم داعش نجح في تنفيذ أضخم عملية تجنيد باستخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في العصر الحديث. كما نجح التنظيم باستخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي بشكل أكثر فعالية بكثير مما استخدمه تنظيم «القاعدة» للوصول إلى جمهور أوسع من خلال أسلوب اتصال أكثر سهولة. ورداً على ذلك، تدفق عشرات الآلاف من الأشخاص من أكثر من (١٢٠) دولة إلى العراق وسوريا وليبيا للالتحاق بتنظيم داعش عام ٢٠١٤.

٢- الحرب النفسية: هناك عدة طرق للإرهابيين للقيام بذلك. على سبيل المثال، يمكنهم استخدام الإنترنت لنشر التضليل، وتقديم تهديدات تهدف إلى تأجيج الخوف والعجز، ونشر صور مروّعة للأعمال الإرهابية من هذا النوع، مثل القتل الوحشي بحرق الطيار الأردني النقيب معاذ الكساسبة على يد تنظيم داعش ٢٠١٥، والصحفي الأمريكي دانيال بيرل عام ٢٠٠٢، في الباكستان على يد تنظيم القاعدة على يد خالد شيخ محمد العقل المدبر لهجمات ١١ أيلول (سبتمبر) والتي أعيد تصوير شريط فيديو لها على العديد من المواقع الإرهابية.

٣- الجماهيرية والدعاية: وسعت شبكة الإنترنت بشكل كبير من الفرص المتاحة للإرهابيين لتأمين الدعاية. وحتى ظهور الإنترنت، كانت آمال الإرهابيين في كسب الدعاية لقضاياهم وأنشطتهم تعتمد على جذب انتباه التلفزيون أو الإذاعة أو وسائل الإعلام المطبوعة. ولهذه الوسائط التقليدية «عتبات اختيار» (عمليات متعددة المراحل من التحرير) لا يستطيع الإرهابيون الوصول إليها في كثير من الأحيان. وبطبيعة الحال، لا توجد مثل هذه العتبات على المواقع الإلكترونية للإرهابيين.

٤- استخراج البيانات: يمكن النظر إلى شبكة الإنترنت على أنها مكتبة رقمية واسعة. الشبكة العالمية وحدها تقدم حوالي مليار صفحة من المعلومات، والكثير منها مجاناً، والكثير منها من اهتمام المنظمات الإرهابية، فعلى سبيل المثال، يمكن للإرهابيين أن يتعلموا من الإنترنت مجموعة واسعة من التفاصيل حول أهداف مثل: مرافق النقل ومحطات الطاقة النووية ومنشآت البناء العامة

والمطـارات والمـوانئ، وحـتى عـن تدابـير مكافحـة الإرهـاب.

٥- جمـع الأمـوال والتبرعـات: اعتمـد تنظيـم «القاعـدة» اعتمـاداً كبـيراً عـلى التبرعـات، وتسـتند شـبكته العالميـة لجمـع الأمـوال مـن الجمعيـات الخيريـة والمنظمـات غـير الحكوميـة وغيرهـا مـن المؤسسـات الماليـة الـتي تسـتخدم المواقـع الإلكترونيـة وغـرف الدردشـة والمنتديـات القائمـة عـلى الإنترنـت. ويحتـوي موقـع الجيـش الجمهوري الإيرلنـدي عـلى صفحـة يمكـن للـزوار تقديـم تبرعـات ببطاقـات الائتمـان عليهـا.

٦- التشـبيك: شـهد إقامـة مثـل هـذا النـوع مـن التشـبيك بـين العديـد مـن الجماعـات الإرهابيـة، مثـل القاعـدة، وداعـش، واليمـين المتطـرف في الغـرب وأمريـكا، تحـولاً مـن منظمـات هرميـة بحتـة مـع قـادة معينـين إلى انتمـاءات لخلايـا شـبه مسـتقلة ليـس لهـا تسلسـل هرمـي قيـادي واحـد. ومـن خـلال اسـتخدام الإنترنـت، تسـتطيع هـذه الجماعـات غـير المترابطـة بشـكل فضفـاض الحفـاظ عـلى اتصـال بعضهـا ببعـض - ومـع أعضـاء الجماعـات الإرهابيـة الأخـرى.

٧- تبـادل المعلومـات: قـام تنظيـم داعـش مؤخـراً عـبر منصاتـه الإعلاميـة بنـشر مجموعـة مـن الروابـط لكتيبـات وفيديوهـات تحتـوي عـلى طـرق تصنيـع عبـوات ناسـفة، وقنابـل للتفجـير عـن بعـد باسـتخدام الهواتـف المحمولـة، واسـتهداف المركبـات لبـث الذعـر والفـوضى في الدول الغربيـة. وفي أوائـل شـباط (فبرايـر) ٢٠٢٢، بـدأت مؤسسـة الصقـري للعلـوم العسـكرية الموالية لتنظيـم داعـش حملـة لتعليـم المتعاطفـين وتحريضهـم عـلى الإعـداد لهجمـات ضـد أعـداء التنظيـم. وعـلى مـدى الأسـبوعين الماضيـين، نـشرت الجماعـة، المتخصصـة في إنتـاج الأسـلحة الكيميائيـة والبيولوجيـة، أدلـة وكتيبـات جديـدة لصنـع القنابـل تقـدم المشـورة التكتيكيـة للمسـلحين المحتملـين باللغتـين العربيـة والإنجليزيـة، وتنشرهـا مـن خـلال قنـوات تطبيـق «تيليجـرام» عـلى وجـه الخصـوص.

٨- التخطيـط والتنسـيق: اعتمـد تنظيـم القاعـدة بشـكل كبـير عـلى الإنترنـت في التخطيـط لهجمـات ١١ أيلـول (سـبتمبر) وتنسـيقها. حيـث عـثر مسـؤولون فيدراليـون عـلى آلاف الرسـائل المشـفرة الـتي تـم نشرهـا في منطقـة محميـة بكلمـة مـرور في موقـع على الإنترنـت عـلى كمبيوتـر الإرهـابي المعتقـل منـذ ٢٠٠٢، والمحكـوم مـدى الحيـاة في غوانتانامـو السـعودي زيـن العابديـن محمـد حسـين (أبـو زبيـدة) الـذي قيـل إنـه العقـل المدبـر لهجمـات ١١ أيلـول (سـبتمبر).

وفي مؤتمر صحفي عقد في أواخر أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، قال رونالد ديك، مساعد مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي ورئيس المركز الوطني لحماية البنية التحتية في الولايات المتحدة، للصحفيين «إنّ منفذي هجمات ١١ أيلول استخدموا الإنترنت و»استخدموها بشكل جيد». ومنذ ١١ أيلول ٢٠٠١، زاد الإرهابيون من مهاراتهم في الإنترنت وزادوا من وجودهم على شبكة الإنترنت».

إنّ قصة وجود الجماعات الإرهابية في الفضاء الإلكتروني ما زالت في بدايتها. ففي عام ١٩٩٨، كان حوالي نصف الجماعات الإرهابية الـ ٣٠ المصنفة على أنّها «منظمات إرهابية أجنبية» بموجب «قانون مكافحة الإرهاب وعقوبة الإعدام الفعالة « الأمريكي لعام ١٩٩٦، يحتفظ بمواقع على شبكة الإنترنت؛ لكن بحلول عام ٢٠٠٠، كانت جميع الجماعات الإرهابية تقريباً قد أقامت وجودها على الشبكة.

مصطفى سعيد
صحفي مقيم في هولندا

الإنترنت المظلم أرض الأنشطة الإرهابية المخفية

بعيداً عن أعين الاستخبارات وسيطرة الحكومات، تمكن القائمون على التنظيمات الإرهابية من التواصل بسرية تامة، من خلال الإنترنت المعتم أو «الدارك ويب»؛ لأنّ ذلك يجعل المعلومات محمية، كما أنّه يجعل تتبع النشاط الإلكتروني من قبل مزود الخدمة مثلاً أو من قبل الحكومة أمراً شبه مستحيل؛ فالشبكة المظلمة هي المكان الأفضل للتخفي بعيداً عن أعين المراقبين.

وليس من باب الصدفة أن تكون شبكة الإنترنت قد أصبحت أداة رئيسية لنشر الأفكار الجهادية، ذلك لأنها تضم آلاف المواقع والمنتديات الجهادية المنشغلة في تسويق أفكار الجهاد العالمي، وتعود أهمية الساحة الافتراضية إلى كونها أداة قابلة للتواصل ومريحة ورخيصة وسريعة وآمنة للدعوة إلى أفكار الجهاد ونشرها.

«الإنترنت المعتم يجعل المعلومات محمية، ويصعّب عملية تتبع النشاط الإلكتروني من قبل الحكومات وأجهزة الأمن»

في البداية من المهم الإدراك بأنّ الإرهابي بالأمس كان يتسلح ببندقية وقنبلة وحزام ناسف، أما الإرهابي اليوم فيتسلح أيضاً بجهاز حاسب محمول وآلة تصوير، وهذا الذي حول الإنترنت لأداة رئيسية في النشاط الإرهابي الدولي.

وينقل عن أيمن الظواهري، زعيم تنظيم القاعدة الإرهابي، قوله «إننا نخوض أكثر من نصف معركتنا في الساحة الإلكترونية»، وقدم نصيحة لكوادره قائلاً: «عليكم أن تدركوا أنّ كل لقطة تلتقطونها هي بأهمية صاروخ يطلق على العدو».

خدم الإنترنت الخلية الإرهابية من حيث تضخيم الصورة الذهنية لقوة وحجم تلك الخلايا التي تمتلك عدداً قليلاً من الأفراد لديهم، أو لدى أحدهم خبرة بالإنترنت وبرامج الملتيميديا لبث رسائل إعلامية ترفد أهدافهم لشن حرب نفسية ضد مستهدفيها والدعاية لأهدافها وأنشطتها، بعيداً عن وسائل الإعلام التقليدية.

الترابط التنظيمي بين الجماعات الإرهابية

كما عمل الإنترنت على تحقيق الترابط التنظيمي بين الجماعات والخلايا ولتبادل المقترحات والأفكار والمعلومات الميدانية حول كيفية إصابة الهدف واختراقه، والتخطيط والتنسيق للعمل الإرهابي، وأيضاً في تدمير مواقع الإنترنت المضادة واختراق مؤسسات حيوية، أو حتى تعطيل خدماتها الإلكترونية.

الإرهابيون الجهاديون، الذين ضربوا بقوة في الأعوام الأخيرة حتى في أكثر البلدان تقدماً من حيث السيطرة والاستخبارات والمراقبة بالخصوص في فرنسا وبلجيكا، استطاعوا الحصول على الأسلحة المختلفة الموزعة ما بين الرشاشات والمسدسات والخناجر والسكاكين عبر الإنترنت، كما استطاعوا شراء المواد الضرورية للتغذية والمحروقات وتعبئة الهواتف النقالة عبر الإنترنت، بالإضافة لما اقتنوه من تذاكر النقل الجوي والبحري بطريقة إلكترونية، واستطاعوا عبر الإنترنت كذلك استئجار السيارات كما استطاعوا الحجز في الفنادق

الإرهابي اليوم يتسلح أيضاً بجهاز حاسب محمول وآلة تصوير

من أجل المبيت، وفي المطاعم والحانات من أجل الأكل واللقاءات الحاسمة والتمويه، لقد استطاعوا اجتياح عالم الإنترنت بكل تطبيقاته ومواقعه الاجتماعية، حيث استقبلوا عن طريقه المكالمات والرسائل الحاسمة في التنسيق والتدبير والحسم في تنفيذ العمليات الإرهابية وفق الخطط التي رسموها.

أفلح هؤلاء الإرهابيون في حربهم الإلكترونية المعلوماتية ضد كل برامج المراقبة والرصد للأجهزة الاستخباراتية في كل الدول؛ حيث إنّ معظمهم استطاع استعمال برامج وتطبيقات معلوماتية مكنتهم من حفظ وسلامة مراسلاتهم. وعلى الرغم من هذا الاجتياح فلا دليل قاطع على أن الإنترنت كان حاسماً بالنسبة للإرهابيين الجهاديين في تنفيذ عملياتهم أو كان طريقاً أفلت من تحت قبضة المراقبة الاستخباراتية، بحسب صحيفة «لوموند» الفرنسية.

جامعة إلكترونية لتعليم الإرهاب

وشكّل الاستخدام الأهم للإنترنت من قبل الإرهابيين في جعله جامعة إلكترونية لتعليم الإرهاب؛ حيث يمكن مشاهدة الأشرطة المصورة للحصول على أجوبة وتوجيهات عملية حول كيفية إعداد العبوات الناسفة المختلفة، والشروحات حول كيفية استخدام الوسائل التقنية بأنواعها.

ولاحظ العديد من المحللين الاجتماعيين والخبراء أنّ السنوات اللاحقة على هجمات ١١ سبتمبر شكلت نقطة تحول على مستوى وسائل التنظيمات الإرهابية، فلجأت إلى حرب المعلومات متمثلة في المنتديات الجهادية التي شكلت صوتاً مرتفعاً لها.

«يستخدم الكثير من مستخدمي الإنترنت التشفير شبكات الإنترنت الافتراضية الخاصة (VPNs) للحفاظ على خصوصية أنشطة الإنترنت»

وقد نجح بالفعل في استغلال التقنيات الحديثة للحصول على التمويل أيضاً؛ حيث إنّ أرباب الإرهاب يحصلون من الإنترنت على قوائم إحصائية سكانية للتعرف على الجمعيات الخيرية والأشخاص ذوي القلوب الرحيمة ومن ثم استجدائهم لدفع الزكاة والتبرعات والصدقات لأشخاص اعتباريين أو مؤسسات خيرية يمثلون واجهة لهؤلاء الإرهابيين وذلك بطرق لا يشك فيها المتبرع مطلقاً بأنه يساعد إحدى المنظمات الإرهابية.

وتطورت المواقع الإرهابية التي تنشر فكر «القاعدة» وغيرها من المنظمات الإرهابية من أربعة مواقع في عام ١٩٩٨ إلى قرابة العشرة في ٢٠٠١، ولكن ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حصل لهذا الفكر انفجار في العدد والسعة والكثافة؛ فتحولت من عشرة إلى قرابة أربعة آلاف في غضون أربع سنوات، وهي اليوم تعد حسب إحدى الإحصائيات أقرب للخمسين ألف موقع. ولقد أضحت الخلية الإرهابية غير مكترثة بعدد الناس الذين قُتلوا بقدر ما يهمها كم من الناس شاهدوا وتفاعلوا مع الحدث الإرهابي.

هذا الفكر حوّل أفراد الخلية الإرهابية من مجموعة قليلة من الناس مبعثرة جغرافياً إلى أن تشكل مجتمعاً خاصاً بها يساعدها على الالتحاق والتواصل الدائم فيما بينهم. هذا الأمر يوهم الآخرين بأنّ هذا المجتمع كبير وقوي ومنظم، بينما هو على العكس تماماً، فقد تكون هذه الخلية قائمة على شخص واحد أو شخصين مع أجهزة حاسب محمول والكثير جداً من وقت الفراغ.

النشاط الإرهابي على الإنترنت

ويتصف الوجود الإرهابي النشط على الإنترنت بأنّه متنوع ومراوغ بصورة كبيرة، فإذا ظهر موقع إرهابي اليوم فسرعان ما يغير نمطه الإلكتروني، ثم يختفي ليظهر مرة أخرى بشكل وعنوان إلكتروني جديدين بعد فترة قصيرة.

ونظراً لتوسع وتعدد وتنوع مجال الأهداف التي يمكن مهاجمتها مع توفير قدر كبير من السلامة للمهاجمين وعدم تعرضهم لخطر اكتشاف هوياتهم أو حتى المواقع التي شنوا هجماتهم منها إلا بعد وقت طويل وجهد في البحث تكون الخسائر الذي يسببها

«ينقل عن أيمن الظواهري زعيم تنظيم القاعدة قوله :إننا نخوض أكثر من نصف معركتنا في الساحة الإلكترونية»

الإرهاب غير متصورة وهائلة، فتوقف التجارة الإلكترونية مثلاً ليوم واحد قد يتسبب في خسائر لأكثر من ستة مليارات ونصف المليار دولار، وهكذا يمكن لمنظمة إرهابية إلحاق الكثير من الأذى والخلل بأعمال البنوك والبورصات وحركة الطيران، بل وحتى تغيير مواصفات تركيبة الأدوية في مصانع الأدوية مما يترتب عليه خسائر في أرواح البشر.

ولا شك في أنّ أحد أهداف الإرهاب هو الحصول على المال والتمويل لعملياته الإجرامية والمتوحشة. وتقدر الخبيرة الاقتصادية لوريتا نابوليوني في كتابها عن الإرهاب، الاقتصاد الجديد للإرهاب في الوقت الراهن بنحو ٥،١ تريليون دولار، سواء من خلال التحويلات القانونية، أو غيرِ المشروعة.

ويعتمد الإرهاب الإلكتروني على غسيل الأموال كإحدى طرق الحصول على المال اللازم له وعملياته تلك في غاية التعقيد والصعوبة، مثلما حصل في قضية غسل أموال قذرة في هولندا مؤخراً، حيث استغرق غاسل الأموال لتطهير أمواله غير المشروعة وتحويلها (٤٥) ثانية فقط ، حيث لجأ إلى الجانب المظلم من الإنترنت الـ«دارك ويب» ذاك المكان الذي يقع خارج سيطرة الحكومات، ويشكل شبكةً متكاملةً غير خاضعة للسيطرة، حيث يمكنهم العمل بعيداً عن الأنظار، في حين أنّ التحقيق في تلك القضية استغرق تقريباً ثمانية عشر شهراً دون نتائج إيجابية تذكر.

الإنترنت المظلم (The Dark Web): أرض الخدمات المخفية

تحت هذا العنوان، كتب ديفيد بيستشيللو، نائب الرئيس ومنسق الأمن وتقنية الاتصالات والمعلومات (ICT)، في موقع (ICANN ، إذ رأى أنّ هناك ناشرين وزواراً يرغبون في التنقل في مواقع الويب وإجراء المعاملات التجارية سراً. ويسمى هذا الإنترنت المظلم ، أرض الخدمات المخفية، حيث يحظى عدم ترك اي آثار والحفاظ على عدم الكشف عن هوية المستخدم حسب تصنيفات محرك البحث وإضفاء الطابع الشخصى على تجربة الانترنت أهتماماً وتقديراً.

تلجأ التنظيمات إلى مواقع ومنصات خاصة بها على الـ «دارك ويب» تقوم بتغييرها بانتظام

خدمة (Tor) والإنترنت العميق

يعتبر الإنترنت المظلم جزءاً مهماً من منظومة الإنترنت؛ حيث يسمح بإصدار المواقع الإلكترونية ونشر المعلومات بدون الكشف عن هوية الناشر أو موقعه. ويمكن الوصول إلى الإنترنت المظلم من خلال خدمات معينة مثل خدمة (Tor) يستخدم العديد من مستخدمي الإنترنت نظام تور (Tor) وخدمات مماثلة كطريقة لتوفير حرية التعبير عن الرأي والارتباط والوصول الى المعلومات وحق الخصوصية.

الإنترنت العميق (The Deep Web) هو مجموع جميع المواقع الإلكترونية التي لم تدرج في محركات البحث. بعض المواقع العميقة هي أسواق غير تقليدية تقدم مجموعة مقلقة من المنتجات أو الخدمات، حيث يمكن شراء أو التوسط في شراء العقاقير غير المشروعة والأسلحة والسلع المقلّدة وبطاقات الإئتمان المسروقة والبيانات المخترقة، أو العملات الرقمية، أو البرامجيات الضارة وبطاقات الهوية الوطنية أو جوازات السفر.

ويمكن، أيضاً، التعاقد مع الخدمات الرقمية أو الجنائية، بدءاً من حملات البريد المزعج (spam) إلى هجمات التعطيل المنتشر للخدمة (DDoS) . ويمكن للمبتدئين حتى شراء الكتب الإلكترونية التي تشرح كيفية مهاجمة المواقع، وسرقة الهويات، أو خلاف ذلك الربح من الأنشطة غير المشروعة.

بدون ترك أثر: التشفير والمراوغة للإنترنت المظلم

يستخدم الكثير من مستخدمي الإنترنت التشفير، على سبيل المثال، شبكات

«يرى مختصون ومتابعون بأنّه من الصعب، في ظل التكنولوجيا الحديثة، وضع آلية مراقبة دقيقة لمتصفحي الإنترنت»

الإنترنت الإفتراضية الخاصة (VPNs) للحفاظ على خصوصية أنشطة الإنترنت، وعادةً ما تلتزم إرتباطات شبكة الإنترنت الإفتراضية الخاصة (VPN) بمعايير السلوك التقليدية لتوجيه الإنترنت لأجل:

١- تحديد مسار ارتباط نهايتي جهاز كمبيوتر المستخدم بخادم يستضيف المحتوى الذي يريد المستخدم الوصول إليه.

٢- النقل الثنائي الاتجاه لطلبات وحركة الاستجابة على طول هذا المسار. غير أنّ التوجيه التقليدي يكون عرضة لتحليل مرور البيانات، وهي تقنية مراقبة يمكن أن تكشف عن مصادر البيانات المنتقلة والوجهات المنتقلة اليها وأوقات الارسال إلى أطراف ثالثة.

من يستخدم نظام (Tor)؟

الصحفيون، أو المبلغون عن المخالفات أو المنشقون، أو أي من مستخدمي الإنترنت بشكل عام ممن لا يرغبون بأن تتعقب أطراف ثالثة سلوكهم أو مصالحهم.

تخدم شبكة (Tor) العديد من الأغراض الجيدة، ولكنها أيضاً تجذب مستخدمي الإنترنت المظلم الراغبين في الحفاظ على أنشطتهم أو أسواقهم، على أن تبقى سرية وغير قابلة للتتبع.

على غرار VPNs، تستخدم شبكات (Tor) أنفاقاً افتراضية، ولكن على عكس VPNs، لا تقوم هذه الأنفاق بتوصيل العملاء مباشرة إلى الخوادم. بدلاً من ذلك، يقوم عملاء (Tor) بإنشاء دوائر من خلال نقاط الترحيل في شبكة (Tor).

ثلاث خصائص مهمة لـ (Tor):

١- لا توجد نقطة ترحيل تعرف المسار الكامل بين نقاط النهاية للدائرة.

٢- يكون كل اتصال بين التبديلات مشفرًا بشكل فريد.

٣- تكون جميع الارتباطات قصيرة الأمد لمنع مراقبة سلوك البيانات مع مرور الوقت.

واستخداماً لهذه الخصائص في تصميمها، تُفشِل مسارات الشبكة الخاصة لنظام (Tor) تحليل حركة البيانات وتدعم القدرة على نشر المحتوى دون الكشف عن الهوية أو الموقع.

بعض الجماعات الإرهابية تستخدم خدمة السكايب لإجراء مقابلات مع مرشحين للانخراط في صفوفها

عمليات إرهابية عبر الإنترنت المظلم

ومن العمليات الإرهابية التي اعتمدت على التقنيات الإلكترونية قيام منظمة إرهابية في أستراليا بتدمير شبكة الصرف الصحي بواسطة عملية إلكترونية، مما نجم عنها أضرار صحية واقتصادية فادحة.

كما قامت منظمة آوم شيريكو الإرهابية اليابانية باختراق نظام البرمجة المتحكم في مسار أعداد هائلة من سيارات الخدمة العامة، ولقد نجحت تلك المنظمة بواسطة التلاعب بأنظمة الحاسب والإنترنت من تعطيل أنظمة أكثر من خمسين شركة يابانية كبرى واختراق أنظمة عشر إدارات حكومية وتوجيهها لصالحها.

ولم يتم اكتشاف هذه الاختراقات إلا بعد أن تكبّدت الشركات والحكومة خسائر باهظة. كذلك استطاعت إحدى المنظمات الإرهابية من مسح جميع البيانات السكانية لليابان بواسطة اختراق أحد المواقع الحكومية، وهذه الهجمات تزيد بمعدل ٦٠٪ سنوياً.

وحالياً يعج موقعا «فيسبوك» و«تويتر» بحسابات وهمية وحقيقية لإرهابيين وتنظيمات إرهابية مسلحة، إلى جانب منتديات متنوعة، حيث يستغلونها لإظهار حسنات التفجير الانتحاري ومبرراته وعوائده التي لا تقدر بثمن على كل مسلم حسب زعمهم.

طقوس خدمة الانتحاريين

وأكد المتخصص في شؤون الإرهاب سعيد اللاوندي أنّ العديد من المواقع التابعة لمجموعات إرهابية متشددة زفّت

«يرى مختصون ومتابعون بأنّه من الصعب، في ظل التكنولوجيا الحديثة، وضع آلية مراقبة دقيقة لمتصفحي الإنترنت»

بشرى «استشهاد» عناصرها على الإنترنت مع صور تضم وجوهاً مبتسمة لأصحابها القتلى، تلك الصور باتت من طقوس الخدمة بين الانتحاريين، وأداة تجنيد شديدة الفاعلية، بحيث يبدو من يقدم على عمل كهذا في قمة الفرح، حتى إنّ أحد المنخدعين كتب تغريدة على تويتر يقول فيها «رأينا العديد من الشهداء يلاقون ربهم مبتسمين، ولكننا لم نر ابتسامة عريضة كهذه، فما الذي رآه كي يبتسم هذه الابتسامة الجميلة؟ ربي امنحنا الشهادة».

وقال عبد الله التطاوي إنّ الفكرة المنتشرة بين هؤلاء أنّ كل من يُجند يعتبر ذلك تشريفاً كبيراً له؛ لأنّ الاختيار وقع عليه من بين كثيرين يرغبون بالتضحية بأنفسهم في سبيل الجهاد.

المتابع لشؤون الإرهاب شريف اللبان، نوّه إلى أن ثمة جماعات إرهابية لا تعتبر تويتر أداة للتواصل، بقدر ما هو ماكينة للصرف الآلي على الإنترنت تستخدم في جمع التبرعات أو حتى إجراء مزادات إلكترونية على سيارات ومجوهرات قدمها متبرعون.

وبحسب الكاتب في شؤون الإرهاب، شعبان الطاهر الأسود، فإنّ بعض الجماعات الإرهابية تستخدم خدمة السكايب لإجراء مقابلات مع مرشحين للانخراط في صفوفها أو تبادل الآراء بشأن التكتيكات العسكرية، أو حتى توجيه أوامر بتنفيذ عمليات انتحارية وتفجيرات، وهذا ما أكده متابع يحمل اسم روجيه جارودي على اعتبار أنّ هذه المواقع غير مراقبة ولا يمكن معرفة مضامينها إلا بعد وقوع الجريمة بفترات طويلة.

من العمليات الإرهابية التي اعتمدت على التقنيات الإلكترونية قيام منظمة إرهابية في أستراليا بتدمير شبكة الصرف الصحي

وتذكر إحدى الدراسات الحديثة أنّ ٨٠٪ من الذين انتسبوا إلى تنظيم داعش تم تجنيدهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي. لكن قيادة هذه التنظيمات وتحريكها في مختلف أنحاء الأرض لا يتم عبرها، أو عبر البريد الإلكتروني والوسائل التقليدية، بل تلجأ التنظيمات إلى مواقع ومنصات خاصة بها على الـ «دارك ويب» تقوم بتغييرها بانتظام.

قامت، مؤخراً، مجموعة «أنونيمس Anonymous» بقرصنة إحدى المنصات الخاصة بتنظيم «داعش»

التطور التكنولوجي ساعد الإرهابيين

التطـور التكنولوجـي أثـر إيجابيـاً عـلى ظاهـرة الإرهـاب العالمي؛ بمعـنى أنه سـاهم في زيـادة الظاهـرة اتسـاعاً وعمقاً بالشـكل الذي نراه في حقبـة العولمـة المعـاصرة، خاصـة إذا علمنـا أنّ العـام ٢٠١٤ - عـلى سـبيل المثـال - سـجّل الاتجـاه الأسـوأ في تاريـخ مـؤشرات الإرهـاب، حيـث تعرضـت ٩٣ دولـة في العالـم (أي مـا نسـبته (٥٧٪) مـن دول العالـم) للإرهـاب.

ويعتـبر هـذا أعـلى معـدل للعمليـات الإرهابيـة خـلال الـ (١٦) عامـاً الماضيـة، وراح ضحيتهـا مـا مجموعـة (٣٢٧٦٥) شـخصاً. وهـذا يعـني أنّ أكـثر مـن نصـف دول العالـم تعـرض للإرهـاب، ويعكـس كذلـك المـدى والنطـاق الـذي وصـل إليـه الإرهـاب كظاهـرة عالميـة متخطيـة للحـدود الوطنيـة.

وتبـيّن بـأنّ «معامـل الارتبـاط» بـين الإرهـاب والتطـور التقـني والتكنولوجـي الـذي جعـل العالـم قريـة إلكترونيـة (عـام ٢٠٠٧) كان يسـاوي (٥٦٪)، وهـو مـا يثبـت أنّ هنـاك ارتباطـاً قويـاً وعلاقـة طرديـة بـين الظاهرتـين.

ويحظـى موضـوع اتجاهـات الإرهـاب المعـاصر بأهميـة بالغـة في النقاشـات السـائدة حاليـاً لتحليـل الظاهـرة، ويلاحـظ بـأنّ الدوائـر الأمريكيـة، سـواء الرسـمية أو الأكاديميـة البحثيـة مـن أكـثر الجهـات العالميـة اهتمامـاً بهـذا المجـال، إذ اتخـذ هـذا الاهتمـام بعـداً أوسـع وأكـثر عمقـاً بعـد هجمـات ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ ضـد أمريـكا.

اتجاهات الإرهاب في أمريكا والعالم

وتقـوم وزارة الخارجيـة الأمريكيـة والمركـز الوطـني لمكافحـة الإرهـاب (NCTC) بالتعـاون مـع

بعض المؤسسات البحثية الخاصة برصد سنوي لأهم اتجاهات الإرهاب في أمريكا وفي العالم.

وتُعرّف اتجاهات الإرهاب بأنّها «التغيرات الحاصلة في النوع، والعدد، وعنف الهجمات الإرهابية، وأساليب العمل، وإمكانيات الإرهابيين، والتجنيد، والتمويل، توجهات الجماعات الإرهابية، وتغيرات ذلك مع الزمن».

وقدم بول ويلكنسون (من أهم الباحثين والمنظرين المعاصرين في ظاهرة الإرهاب) عدة أهداف تفسر استخدام الجماعات الإرهابية للتكنولوجيا والتقنيات الحديثة، وأبرزها:

١. تقديم مادة دعائية تسمح بتحقيق الرعب والخوف والقلق لدى الجماعات المستهدفة، وذلك بالتركيز على حجم الخسائر في الأرواح والخسائر المادية والتحذير من المستقبل المجهول.

٢. السعي من أجل الحصول على تأييد الرأي العام الدولي ومناصرة قضاياهم، وكسب تعاطف الجماعات المؤثرة في الرأي العام، وشرح وجهة نظرهم وأوجه الظلم الواقع عليهم، والتأكيد على قدرتهم في تحقيق النصر في المعركة.

٣. إحباط معنويات العدو، وبالتحديد الحكومات المستهدفة من العمل الإرهابي، وإشاعة روح اليأس بين قوات الأمن المعادية.

٤. مخاطبة الجماعات ذات الاهتمام المشترك، ومن ثم تعبئة قطاع أوسع من الجماعات والمنظمات والتحالف معها، وتجنيد عناصر جديدة والحصول على الدعم المادي والمعنوي واللوجستي لشن عمليات جديدة.

قرصنة منصات «داعش»

وقامت، مؤخراً، مجموعة «أنونيمس Anonymous» بقرصنة إحدى المنصات الخاصة بتنظيم «داعش»، والتي تبيَّن أنها مزيفة، لكن لاحقاً وإثر هجمات باريس العام الماضي، تمت أيضاً قرصنة موقع آخر لهم من قبل المجموعة ذاتها واستبداله بمنصة لبيع مضادات الاكتئاب والمقويات الجنسية.

بيْد أنّ تنظيم «داعش»، وبعد إغلاق الموقع، غيّر النطاق الذي يستخدمه، بل ونشر تعميماً على الـ «دارك ويب» يفيد بتغيير الموقع الجديد ومعلومات التواصل بعنوان «إصدارات الخلافة» وتم تعميم الموقع الجديد.

ومن أبرز المواقع التابعة لتنظيم داعش «مركز الفجر للإعلام»، مؤسسة «الفرقان الإعلامية»، وكالة «أعماق».

وحسب الكثير من التصريحات والأبحاث، يضم تنظيم «داعش» قسماً خاصاً، مسؤولاً عن التواصل واستخدام الـ «دارك ويب» بصورة احترافية تحمي تنظيم «داعش» من الملاحقة والاختراق، وتأمين تبادل المعلومات والتمويل، وهذا ما تحاول الاستخبارات الأمريكية التصدي له، وخصوصا أنّ هناك العديد من الملفات النصية التي تشرح كيفية التبرع لتنظيم «داعش». وتتحدث الملفات عن أهمية التبرع للجهاد وتشرح آلية تحويل النقود عبر الـ «دارك ويب».

ويرى مختصون ومتابعون بأنّه من الصعب، في ظلّ التكنولوجيا الحديثة، وضع آلية مراقبة دقيقة لمتصفحي الإنترنت أو مراقبة المواقع التي تنفث سمومها في عقول الشباب الذين يعانون من البطالة والحرمان والكبت الاجتماعي وقلة التجربة، وهي كلها أسباب تجعل الفضاء التكنولوجي المفتوح يشكل عالماً افتراضياً قابلاً للتحقق بالنسبة لهؤلاء. وقد تمكنت التنظيمات الإرهابية من اللعب على تلك الوتيرة بشكل كبير، وسارعت إلى فتح قنواتها الخاصة لتمرير أفكارها إلى الشباب، معتمدة مختلف أنواع الأساليب المغرية بصرياً وروحياً.

ماهر فرغلي
كاتب مصري

منتديات داعش:
أكاديمية ضخمة لتعليم الإرهاب

النظر إلى أهم الأدوات الإعلامية لتنظيم داعش؛ وفي مقدمتها: شبكة شموخ الإسلام، ومنبر الإعلام الجهادي، وشبكة ناشر، وبالتدقيق فيما ينشر؛ يجد المراقب بكلّ تأكيد عدداً كبيراً يعمل معهم؛ إنّه عالم مليء بالموظفين التقنيين، والمجندين الافتراضيين، وهو ما جعلهم قادرين على تحريك المشاعر، واستقطاب المئات من الشبان والمراهقين.

الموظّف الأساسي

يعتمد داعش على محاور يعمل من خلالها، هي: خلايا الدعوة والإعلام، والتمويل، والتربية، والتنفيذ العسكري، وكلّ منها مكمل للآخر، وهي تنقسم فيما بعد إلى ولايات ووزارات ومجلس شورى وهيئة مفوضة، لكنّ المهم هنا في المحور الإعلامي؛ أنّ سيلاً كبيراً من الذين يعملون في الخلفية السرية دون إعلان هم بالمئات، وهم الذين يفتحون باب المشاركة

«المنتديات الجهادية تنطوي على أسرار ومعلومات كبيرة وخبراء وضعوا لها أنظمة في أعلى درجات من الاحترافية»

حـول الهـدف والاسـم المشـترك والعقيـدة الداعشـية.

يديـر شـبكة «شـموخ الإسـلام» شـخص يدعـى «أبـو العينـاء الخراسـاني»، وتخضـع، في الأسـاس، لإدارة آدم ليبرمـان، وهـو حفيـد من يسـمَّى بـ «كارل اليهـودي»، القيـادي برابطـة ذات صلـة بإسرائيـل تناهـض مـا تسـمّى «معـاداة السـامية»، وآدم هـو عـزام الأمريكي الـذي اعتنـق الإسـلام بعـد اليهوديـة، وقيـل إنّـه قُتـل في غـارة داخـل باكسـتان، عـام ٢٠١٥، وفـق تصريـح خـاص لخبـير الحـروب الإلكترونيـة، كمـال فـؤاد.

وأخطـر الأقسـام الموجـودة داخـل الشـبكة يطلـق عليهـا «معسـكر الشـموخ»، وتضمّـن كلّ الأمـور العسـكرية والقتاليـة الـتي يحتـاج إليهـا الإرهـابي، إضافـة إلى فيديوهـات لتدريبـات عاليـة الجـودة للتنظيمـات الإرهابية، كمـا يتيـح المعسـكر دورات في الإعـداد البـدني والدفـاع عـن النفـس، وبـه كتب ومراجـع خطيرة في كيفيـة اسـتخدام وصناعـة المتفجـرات، ومنهـا القنابـل الخفيفـة الـتي لا يمكـن كشـفها وطـرق صناعـة الصواريـخ الحراريـة والقنابـل العنقوديـة، وإجـراء تجـارب خاصـة في قسـم الأسـلحة الكيميائيـة، منهـا تجـارب حـول غـاز الفوسـفين السـام، وإنتـاج كميـات كبـيرة مـن نـترات الأمونيـوم، والبروكسـيد أسـيتون، المسـتخدمة في صناعـة المتفجـرات.

كمـا توجـد دورات حـول تفخيـخ السـيارات، وطـرق سرقتهـا بـدون مفتـاح، وهنـاك أسـاليب وتكتيكات لتضليـل الطائـرات بـدون طيـار، وطـرق اقتحـام الأماكـن، سـواء باسـتخدام السـلاح النـاري أو التفجـير.

الموظـف الأول الأسـاسي في هـذه الشـبكة؛ هـو المخطـط الافـتراضي الـذي يقـوم بوضـع الخطـة الإعلامية بالكامـل، وهو المسـؤول فيمـا بعـد، والمـشرف عـلى هـذه المنتديـات والشـبكات، الـتي تخضـع إلى مـا يسـمى «سرايـا الدعـوة والتجنيـد»، المسـؤولة عـن ضمّ عنـاصر جديـدة للتنظيـم، ولا علاقة لهـا بأيّـة عمليـات عسـكرية، ورأت مجلـة تنظيـم القاعـدة «inspire»؛ أنّهـا الخلايـا البانيـة الـتي تكـون غـير مكشـوفة، وقـادرة عـلى الحركـة في أوسـاط النـاس، وتعيـش بأمـن وحريـة، ويكـون أفرادهـا متفهّمـين لمنهـج

يدير شبكة «شموخ الإسلام» شخص يدعى أبو العيناء الخراساني

الجهاد المسلّح، ولديهم الأهلية الفكرية لشرحه والدعوة له، وعلى قدر لا بأس به من الفهم الشرعي والسياسي والحركي، ومستوى مناسب في القدرة على التدريب السري على الأسلحة الخفيفة والمتفجرات وأسلحة العصابات الخفيفة الأخرى، احتياطاً لأيّ عارض أو ظرف.

يقول أسامة شحادة، في تحقيق حول منتديات التنظيمات الإرهابية، إنّ «إدارة المنتديات التي تشرف عليها الحركات والتنظيمات «الإسلامية»، التي تعمل سرياً أو علنياً، صعبة ودقيقة، وتحتاج إلى خبرة فنية وإدارية عالية المستوى، وخبرة تقنية متقدمة في علم الشبكات واستخدام الأجهزة وأمن المعلومات.

ويقول كمال فؤاد، خبير تكنولوجيا المعلومات والحروب الإلكترونية، في حديث خاص: «شبكة «شموخ الإسلام»، و«منبر الإعلام الجهادي»؛ هما أضخم موقعَيْن سريَّين تابعَين لتنظيم داعش الإرهابي؛ فالأول لا يدعم المتصفحات المعروفة، مثل «جوجل كروم»، أو «فايرفوكس»، أو «أوبرا»، ويعتمد على نظام تشفير عالٍ، والحالة الوحيدة لإمكانية الدخول هي استخدام برنامج «TOR»، الذي يغيّر موقع الجهاز الخاص بك (iP)، كلّ عشر دقائق، ولا أحد يستطيع معرفة مكانك الحقيقي، لكنّ هذه الطريقة مرهونة بالاشتراك أولاً بالموقع، وهذا الأمر لا يحدث إلا بتزكية مباشرة من زعيم التنظيم، أو أحد كبار مساعديه.

توجد دورات حول تفخيخ السيارات، وطرق سرقتها بدون مفتاح

داخل مؤسسة عسكرية

يضيف: «المشتركون بالشبكة يشعرون بأنّهم داخل مؤسسة عسكرية كبيرة؛ فلكلّ عضو رتبة ويتم ترقيته بناءً على تقييمه من الإدارة، فالعضو الجديد يطلق عليه «شامخ جديد»، وبعد الترقية يصبح «شامخ محرِّض»، ثم «شامخ ناشط»، وحين يصل إلى «شامخ مراقب»، يمكنه تحصيل أموال من الشبكة ويصبح وجوده داخل الشبكة وظيفة له في التنظيم».

ولا تحوّل الشبكة الأموال للأعضاء داخل الموقع بطريقة مباشرة، حتى لا تتعقبهم الأجهزة الأمنية؛ لذلك يتم منحهم الأموال من خلال بطاقات تسمَّى «الكاش يو»، وهذه البطاقات منتشرة بكل الدول، وأسعارها تبدأ من ١٠ دولارات حتى ٣٠٠ دولار، وهي مخصصة لعمليات الشراء عن طريق الإنترنت، وتتميز بأنها وسيلة توفر خدمات الدفع بأمان وسهولة دون الكشف عن هوية المستخدمين.

ويمكن لرواد «شموخ الإسلام» تحصيل المبالغ المالية عن طريق موقع «باي بال»، وهو الموقع التجاري العالمي الذي يسمح بتحويل الأموال عبر الإنترنت والبريد الإلكتروني للحسابات البنكية المختلفة، وقد سبق أن أعلنت الشبكة

هناك موظفون داخل داعش يتقاضون أجراً نظير عملهم في المنتديات

عـن الحاجـة إلى عمـل فتيـات شـامخات معهـنّ، مقابـل أجـر مـالي؛ لذلـك عليهـنّ مـلء اسـتمارة البيانـات الموجـودة داخـل الإعـلان بالشـبكة، والـتي تتضمـن بعـض الأسـئلة، ويتطلـب فيهـا وضـع معلومـات شـخصية عـن الحسـابات الإلكترونيـة، ثـم إرسـالها داخـل برنامـج «تلغـرام»، لفتـاة تدعـى «آيـة»، وهـي مسـؤولة توظيـف الفتيـات الشـامخات.

مشرفون وإداريون برواتب

في فـترة مـن الفـترات؛ كان القيـادي أحمـد أبـو سـمرة، وهـو فرنـسي مـن أصـل عـربي، هـو المـشرف عـلى النواحـي الإعلاميـة، وكانـت تخضـع لـه مجموعـة مـن الأقسـام، هـي: إدارة المواقـع العامـة، والأمـور التقنيـة، والتخطيـط العـام والتطويـر، يليـه نائـب المـشرف العـام الـذي يرتبط مباشرة بالمشرف العـام، ويقـوم مقامـه في حـال غيابـه، ويتبعـه مراقـب عـام الإشراف، الـذي يقـوم بتنفيـذ التعليمـات وكتابـة التقاريـر والتغذيـة العكسـية، ويـلي ذلـك قسـم المراقبـة، الـذي يشـمل: مراقـب النواحـي الشرعيـة والمراجـع؛ حيـث يقـوم بمراجعـة المواضيـع والقضايـا والآيـات والأحاديـث، ثـم مراقـب التوثيـق والمصـادر، ويقـوم بالتأكـد مـن الأفـلام الوثائقيـة، ومـا يصـدر عـن «الجماعـات الجهاديـة»، وبيـان المـزوَّر منهـا والملفَّـق، وحذفـه مـن الشـبكة والمنتـدى في حـال ثبـات عـدم صحـة المـواد المنشـورة، ثـم مراقـب

«خبير: تركّز مواقع داعش على برامج المحادثة بهدف تحريض الناس وتذكيرهم بفضل الجهاد وإرسال آخر أخبار «الجهاد» و«المجاهدين»»

المكرّر والحذف والنقل، ويقوم بحذف الموضوعات المسيئة للتنظيم.

يذكر الكاتب أسامة شحادة، حسبما نشرت «الحياة» اللندنية؛ وظائف أخرى: منسّق المشرفين، ومنسقة المشرفات، والمشرفون ونوابهم، فهم يتولون عملية التنسيق والإشراف على الموضوعات المطروحة في المنتديات، وتتابع الموضوعات التي تطرحها النساء، منسقة المشرفات، وما يتبعها من مشرفات، كما هناك مجموعة من اللجان؛ اللجنة الثقافية، التي تقوم بجمع الموضوعات الأدبية والبحوث والتحقيقات والصور التي تخصّ الأعضاء، والتدقيق فيها، وثاني هذه اللجان، اللجنة الفنية، وتقوم بالإخراج الفني لما يتفق على نشره، وآخر اللجان اللجنة التقنية، ومهمتها توفير الدعم الفني من برامج تشغيلية وأدوات مساعدة، مع شرح طريقة عملها.

إعلان عن طلب إعلاميين

كما يذكر الكاتب المختص في الإسلام السياسي، محمد الفقي، في حديث خاص؛ أنّ هناك موظفين داخل داعش، وهم يتقاضون أجراً نظير عملهم في المنتديات، وأنّ بعض منتدياتهم كتبت إعلاناً عن طلب إعلاميين، وهي «ناشر نيوز».

وأضاف: «هم يقسمون موظفيهم بين المنتديات والمواقع، ومواقع التواصل الاجتماعي، والإعلام المرئي (يوتيوب)، والإعلام الصوتي، وقسم الهاكرز»، مشيراً إلى أنّ «المنتديات تعتمد على التفاعل بين إدارة المنتدى والقرّاء، ولا قيمة للمنتدى من دون مشاركات القرّاء، فبعض المختصين منهم في التعامل مع الجمهور هم من يشرف على هذا القسم».

يوضح الكاتب المختص في الإسلام السياسي، أحمد الجدي، في تصريح خاص؛ أنّ غرف «البالتوك» هي أهم قسم داخل منتديات داعش، وهي عبارة عن غرف دردشة، والمشرفون عليها هم أعلى درجة ومرتبة داخل التنظيم؛ إذ إنّهم هم الذين يجرون المحادثات والحوارات ويردون على الشبهات المتعلقة بالأفكار.

وفيما يخص قسم الإعلام الصوتي؛ فقد أوضح الجدي أنّه يتمثل في الخطب والدروس الصوتية الجهادية، والكتب المسموعة الجهادية، وأخيراً ابتدعوا «الإذاعة»، وهي «إذاعة البيان»، وهي برامج مجدولة يتم نشرها على الصفحة الرئيسية لمنتدى شموخ الإسلام، أو منبر الإعلام الجهادي، وكذا شبكة ناشر.

برامج المحادثة

وقال: تركّز مواقع داعش الرئيسية على برامج المحادثة، بهدف تحريض الناس وتذكيرهم بفضل الجهاد، وإرسال آخر أخبار «الجهاد» و«المجاهدين»، وفيما يتعلق بالهاكرز، تركز على إستراتيجيات تدمير بعض المواقع المعادية.

من المهمّ الإشارة إلى أنّه قبل الحصول على أية وظيفة داخل المنتديات الداعشية، فلا بدّ من الحصول على تزكية قيادي بالتنظيم؛ لذا سنجد أعداد العاملين فيها ليست ضخمة؛ نظراً إلى الشروط الصعبة جداً التي وضعها القائمون عليها للسماح لأيّ شخص برؤية المحتوى الذي يقدمونه، ومن ضمن هذه الشروط أن يحصل الشخص الراغب بالعضوية في تلك المنتديات على توصية.

يقول الكاتب أحمد الجدي: «هذه المنتديات تستهدف المؤيدين، وبقوة، للتنظيم، ولا تستهدف المؤيدين العاديين، الذين لم يصلوا لدرجة القناعة الكاملة بفكر داعش، أو الأعضاء الفعليين في التنظيم، الذين يعيشون بالفعل في أماكن سيطرته، وذلك رغبة من داعش في استغلال هؤلاء إما لجعلهم ذئاباً منفردة تنفذ عمليات إرهابية، أو لجعلهم إعلاميين مؤهلين للترويج.

المنتديات الجهادية تنطوي على أسرار ومعلومات كبيرة وخبراء وضعوا لها أنظمة في أعلى درجات من الاحترافية، وهناك منتديات، مثل شبكة شموخ الإسلام، بمثابة أكاديمية ضخمة لتعليم الإرهاب؛ بداية من الأفكار المتطرفة، وصولاً إلى عمليات القتل والإجرام وتصنيع الأسلحة التي تصل إلى «الصواريخ». وموظفو هذه المنتديات مهمتهم الأساسية ضخّ الفكر المتطرف من خلال النبش في الكتب والفتاوى، وإظهار التفسيرات الأكثر تشدداً للنصوص، وإنزالها على وقائع العصر، ومن ثم إصدار الأحكام. وفي هذه المرحلة؛ يكون الشاب في مرحلة التأمل والاختيار، والمساعدة في الاختيار، وهي مرحلة يتم من خلالها استخدام المؤثرات لدفع الشخص الحائر لتكوين موقف.

منتصر حمادة
كاتب مغربي

في تقرير غير مسبوق:
٧ أسباب تصنع الإرهابيين في فرنسا

هذه سابقة بحثية في فرنسا وفي أوروبا، بل سابقة مقارنة مع العديد من الدول العربية، أن يصدر تقرير يدقق في الأسباب المركبة لاعتناق شباب مسلم الحالة الجهادية، عبر تورطهم في ظاهرة التطرف العنيف، من أجل رسم خريطة شاملة حول الظاهرة.

استهدف التقرير معتقلين إسلاميين، وأشرف عليه عالم السياسة، غزافييه كروتيز، وهو بروفيسور العلوم السياسية في جامعة سانت جرمان أون لاي ببباريس، ومتخصص في سوسيولوجيا العنف السياسي والعنف الجماعي والتشدد والإرهاب، صدر له في سنة ٢٠١٧ كتاب «جنود الله: أحاديث الجهاديين المعتقلين»، كما أشرف سابقاً مع الباحث لوران موكيلي على صدور موسوعة «العنف السياسي في أوروبا». وصدر التقرير الذي استعرضت مضامينه صحيفة «لوموند» في ملف خاص، بطلب من لجنة

«كان المحدد الاجتماعي والاقتصادي حاضراً في الأسباب المؤدية أو المغذية للتطرف العنيف»

مكافحة التطرف العنيف، والمنبثقة عن الإدارة السجنية في فرنسا.

شمل التقرير ثلاثة أصناف من المتشددين: معتقلون في الملف، معتقلون في حالة احتياط أو مدانون في قضايا التطرف العنيف، بعدد إجمالي وصل حتى بداية تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢١ إلى ٤٥٤ معتقلاً، منهم ٣٨٤ رجلاً و٧٠ امرأة.

استمرت مدة إنجاز المهمة داخل السجون الفرنسية بين شهرين وثلاثة أشهر، تأسيساً على جدول بيانات جاهز سلفاً، يتعلق بحالات المعتقلين المتورطين في قضايا التطرف العنيف، ولا يشمل حالات معتقلي الحق العام من المشتبه فيهم بالتورط في الملف نفسه، وعددهم يناهز ٦٥٠ حالة، وقد تميزت هذه المرحلة بإجراء حوارات مباشرة مع جميع المعتقلين المعنيين بالتحقيق، بهدف معرفة مسارهم الاجتماعي والمهني، طبيعة السوابق في الانحراف، معالم الشخصية الشخصي ومعطيات أخرى.

جاءت أولى الخلاصات لتؤكد أنّ الظاهرة نجدها في شتى جهات فرنسا، سواء تعلق الأمر بالمدن الكبرى (حوالي ٦٠ في المئة من المعتقلين) أو المدن الصغيرة التي يقل عدد ساكنتها عن ٣٠ ألفاً من المواطنين (حوالي ١٧ في المئة)، مع نسبة ٢ في المئة لمعتقلين قادمين من البوادي.

كان المحدد الاجتماعي والاقتصادي حاضراً في الأسباب المؤدية أو المغذية للتطرف العنيف؛ إذ إنّنا نجد في ثنايا نسبة ٥٤ في المئة القادمين من عائلات متواضعة الدخل المادي، أن ٨٤ منها من عائلات تعاني الفقر المدقع، وبالكاد ١٦ في المئة فئة قادمة من وسط عائلي ميسور، ولكنها لم تسلم من تأثير الدعاية الجهادية في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

وإجمالاً، أحصى التقرير سبعة أسباب رئيسية تقف وراء بزوغ التطرف العنيف، وجاءت كالتالي:

ـ هناك بداية تأثير الخطاب الدعوي، وتصل نسبته إلى ١٩ في المئة، وموزعة تفاصيله على حضور قوي لمعارف وممارسة دينية عند المعتقلين المعنيين به، والتورط السابق في ملف الاعتداء على أشخاص وممتلكات.

« أحد المفاتيح التفسيرية التي كشف عنها التحقيق تواضع الحصيلة التعليمية للمعتقلين بأرقام أدنى بكثير مقارنة مع المعدل الوطني»

ــ نجد أيضاً تأثير الهشاشة النفسية، بنسبة تصل إلى ٢١ في المئة، وموزعة بدورها على اتجاهين: يرتبط الأول بالمرور من حالة عزلة اجتماعية، بينما يرتبط الثاني بوجود ماضٍ عائلي مضطرب.

ــ هناك كذلك دور الانحراف الذاتي البعيد عن ارتباطات تنظيمية، سواء كانت عائلية أو مرتبطة بصداقات أو منظمات، وتصل نسبة هذا المحدد إلى ١٨ في المئة، موزعة تفاصيلها على وجود سوابق في مشروع السفر إلى أماكن النزاع، تصفح العالم الرقمي، أو التورط في ولاءات بناءً على التعرض لصدمة نفسية.

ــ تأثير الانحراف المجتمعي وتصل نسبته إلى ١١ في المئة، خاصة مع القاصرين، وضحايا الإدمان على المشروبات الكحولية والمخدرات، أو المعتقلين الذين كانت لديهم سوابق عائلية غير سوية.

ــ تأثير التذمر والاحتجاج بنسبة ناهزت ١٢ في المئة، وضمن هذه الخانة، نعاين مرور المعتقلين على ممارسة فنون الحرب، السفر لأماكن النزاع، أو التعرض لصدمة بسبب مشاهدة أشرطة وأخبار خاصة بالمسلمين في المنطقة، وتم التأكيد هنا على تأثير أخبار سوريا وقطاع غزة ومناطق أخرى.

ــ من الأسباب الرئيسية كذلك نجد التأثر بنزعة الذكورية بنسبة قاربت ١١ في المئة، وموزعة على اتجاهين: تأثير صريح لعلاقة انصهارية مع الأم، وتعرض المتطرف العنيف لتأثير المحتوى الإعلامي والرقمي.

ــ وأخيراً، سبب سابع صُنّف في خانة «العلامة الخاصة»، لأنها تهم فئة أقلية ناهزت نسبتها ٨ في المئة، تتميز بامتلاك معلومات دينية متواضعة، أو ذات سوابق قضائية في توفير دعم لوجيستي يهم الظاهرة.

وضمن هذه الملفات السبعة، خلُص المشرف على التقرير، غزافييه كروتيز، في الحوار الذي أجرته معه «لوموند»، أنّ الملف الأول والخاص بالشق الدعوي يبقى

«من مفاجآت التقرير عدم دقة الخطاب السياسي السائد بفرنسا حول دور الانحراف المجتمعي بتغذية الحالة الجهادية»

الأكثر حضوراً والأكثر إثارة للقلاقل؛ لأنّ الأمر يهم فاعلاً مؤمناً بقضية ومنخرطاً فيها، إضافة إلى أنه في الحالة الفرنسية، يرفض الدولة والجمهورية، وليس صدفة أن يكون الفاعل النضالي الأكثر تنظيماً والأكثر تورطاً في حالات الاعتداءات على الأشخاص والممتلكات.

بخصوص تأثير وجود الأطفال على احتمال النزوع نحو التشدد الديني والانضمام للحالة الجهادية، لاحظ غزافييه كروتيز أنّه بشكل عام، غالباً ما نعاين غياب الأطفال لدى الرجال المتورطين في قضايا الإرهاب ــ كما لاحظ ذلك مثلاً مع مجموعات اليمين المتطرف واليسار المتطرف أو المجموعات الانفصالية في إقليم الباسك أو إيرلندا ــ ولكن الجديد مع الحالة الجهادية في فرنسا، وجود عائلات لديها أطفال، كما لو أنّ الانخراط هنا عائلي وليس شخصياً، مع حضور تأثير قوي للأم، وأحياناً يتعلق الأمر بالأخت الكبرى، وتفسير ذلك مرتبط بمحددين: إما رغبة نسائية في إثبات الوجود أو رغبة في الفرار من الواقع.

كما قلّل غزافييه كروتيز من تأثير العامل النفسي؛ لأنه كان متواضعاً في الخلاصات، بخلاف الأمر مع تأثير حالات الإدمان على الكحول والمخدرات، والتي ناهزت ٢٨ في المئة مع أن المعدل الوطني يناهز ٢٠ في المئة.

من مفاجآت التحقيق أيضاً، التقليل من الخطاب السياسي السائد في فرنسا بخصوص دور الانحراف المجتمعي في تغذية الحالة الجهادية؛ حيث اتضح أنه محدد نسبي وليس محدداً مفصلياً، بدليل إنه ضمن ٣٥٣ حالة من ملفات التحقيق، اتضح أننا لا نجد أي أثر لانحراف مجتمعي في ملف ٢٤٥ حالة. كما تمّ التقليل من تأثير عامل الهجرة؛ حيث كان متواضعاً جداً، وهذه نتيجة تؤكد بعض القراءات البحثية التي صدرت خلال العقد الماضي بخصوص مسؤولية الوسط المجتمعي والمحيط العائلي والنهل الديني والظروف الاقتصادي، مقارنة مع تأثير عامل الهجرة.

أحد المفاتيح التفسيرية التي كشف عنها التحقيق، تواضع الحصيلة التعليمية

« لا مفر من مراقبة مضامين مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الإنترنت، خاصة أن الأمر لا يهم الحالة الجهادية وحسب»

للمعتقلين، بأرقام أدنى بكثير مقارنة مع المعدل الوطني، وخاصة نسبة نيل شهادة الثانوية العامة، أو البكالوريا، ومن بين التفسيرات التي أوردها غزافييه كروتيز أنّ هذا النقص التعليمي يعوضه المتطرف العنيف في النهل من العلوم الإسلامية، كتعويض عن تواضع النهل في المؤسسات التعليمية الجامعية.

من بين أرقام التقرير، نقرأ أنّ ٦٥ في المئة من المعتقلين لا تتوفر له معرفة بالأوضاع السياسية والجيوسياسية للشرق الأوسط، ٤٦ في المئة أكدوا أنهم مروا من حالة صدمة بسبب الانتماء للمسلمين في الساحة الفرنسية، ٧٥ في المئة ينتمون إلى عائلات من أصول مسلمة، و٢٥ في المئة من معتنقي الإسلام.

بخصوص الحصيلة الدينية لدى المعتقلين؛ أي المعلومات الدينية المتوافرة لديهم، بصرف النظر عن طبيعتها، فكانت الأرقام دالة، منها أنّ ٤٦ في المئة عند فئة من المعتقلين، نهلوا المعلومات الدينية من العائلة، واصطلح عليه غزافييه كروتيز بـ»الإسلام الثقافي البعيد عن التورط في الحالة الجهادية»؛ ثم ٢٧ في المئة جاء نهلها الديني من دور العباد؛ أي المساجد، مقابل ١٧ في المئة كان أصل نهلها الديني إما من علاقات الصداقة أو من التردد على العالم الرقمي، ٧ في المئة كان أصل النهل يهم الارتباط الزوجي. وضمن مجمل المعتقلين، اتضح أن ٥٤ في المئة لديهم معلومات دينية متواضعة أو ضعيفة.

في ما يتعلق بممارسة الصلاة والشعائر الدينية، اتضح أنّ حوالي ٤٣ في المئة من المعتقلين يمارسون الشعائر بشكل منتظم، مقابل غيابها لدى ٥ في المئة، ونسبة ٢٨ في المئة لدى فئة تمارسها بشكل متواضع، أو تمارسها بشكل متقطع مع فئة رابعة ناهزت نسبتها ٢٤ في المئة.

نأتي لأسباب الانحراف نحو الحالة الجهادية عن المعتقلين المعنيين بالتحقيق، حيث نجد أنّ دور العالم الرقمي وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي حاضر بقوة، بحيث يصل إلى ٧٠ في المئة، بما يُفسر المتابعات البحثية التي تسلط الضوء

خلال السنوات الأخيرة على ظاهرة الجهاد الرقمي، وميزته الرهان على مواقع التواصل الاجتماعي وليس الرهان على العمل الميداني تحت إطار جماعة أو تنظيم.

ضمن الأسباب أيضاً، نجد أنّ ٥٣ في المئة من المعتقلين المعنيين، طرقوا الحالة الجهادية بسبب علاقات الصداقة، أو بسبب تأثير المنظمات والجمعيات وصالات الرياضة، مع حالة ٢٩ في المئة، أو جاء اعتناق التطرف العنيف عبر بوابة العائلة، وناهزت النسبة هنا ٢٥ في المئة.

بخصوص التوصية الأهم التي يقدمها غزافييه كروتيز على ضوء قراءة خلاصات التحقيق والتعريف بحيثياته للمسؤولين والرأي العام، فقد اعتبر أنه لا مفر من مراقبة مضامين مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الإنترنت، خاصة أنّ الأمر لا يهم الحالة الجهادية وحسب، وإنّما يهم حتى ظواهر مجتمعية أخرى من قبيل التحرش التعليمي، كما اقترح تكوين مؤطرين دينيين لكي ينخرطوا في التصدي لخطاب الإسلاميين في ضواحي المدن الفرنسية، لولا أنّ هذا أمر مستبعد في قراءات وخيارات الحكومة الفرنسية، على حد قوله.

من المتوقع أن يكون للتقرير ما بعده أوروبياً وعربياً على حد سواء، بل قد يكون سبباً في صدور مراجعات بخصوص تدبير ظاهرة التطرف بحكم تحقيق هذا السبق الفرنسي في القراءة البحثية والمدققة في الظاهرة، بشكل لم يسبق أن عايناه من قبل، ولو توقفنا عند الحالة المغربية مثلاً، ورغم تحقيق مجموعة تراكمات قامت بها مؤسسات حقوقية ودينية وغيرها، بل وصل الأمر مؤخراً إلى درجة صدور كتاب جماعي حول «تفكيك التطرف العنيف» تحت إشراف مؤسسة دينية، إلا أنه لم يتم حتى حدود اللحظة إنجاز دراسة مفصلة على غرار التدقيق والتفصيل الذي جاء في التحقيق أعلاه، والأمر نفسه نعاينه في تفاعل العديد من دول المنطقة العربية مع ظاهرة التطرف العنيف.

ماهر فرغلي
كاتب مصري

هكذا يسهم الإقصاء المتبادل بتعزيز الإرهاب في أوروبا

تُحيل بعض النظريات إلى تفسير منطقي للأحداث الإرهابية في أوروبا وأسبابها، وهذه النظريات على محورين؛ محور كامن داخلي، يتعلق بحالة تاريخية قديمة وبيئة داخلية منتجة للعنف، تنتج منها بعض التصورات مثل: التصور الثقافي، والاقتصادي، والتفسير المؤسسي للعنف، والمحرضين الداخليين، ويتمثل، وفق هذه الفرضية، بفشل أوروبا في إدماج العرب والمسلمين، ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، وتهميش سكان الضواحي، وأغلبهم عرب ـ مسلمون.

والمحور الثاني هو الخارجي؛ ويتعلق بالسياسات الغربية تجاه المجتمعات العربية ــ الإسلامية، التي يسيطر عليها هاجس الهيمنة والمصلحة دون التفكير في مساعدتها على النهوض بأوضاعها الداخلية،

يرى البعض أنّ الإرهاب في أوروبا نتج بسبب انتهاج دوله سياسات الدمج أو التذويب للهوية

وإدماجها في ثقافة العصر، والإصرار على تأبيد التخلف وتبعاته، وتكريسه بكلّ الوسائل، بغية تكريس التبعية الاقتصادية والسياسية، وكذلك سياستها الخارجية «التدخلية» في مناطق النزاع؛ سوريا، العراق، مالي، أو قضية القدس.

نظريات المحور الداخلي

١- النظرية الثقافية:

تؤكد على الأسباب الداخلية البنيوية، المتجذرة في عمق المواطن الغربي، وهي التي تحيل الإرهاب في أوروبا إلى التصورات والمخيال الثقافي للمواطن الأوروبي، وأجيال المهاجرين، خاصّة الجيل الثالث، وإحساسهم بالضعف أمام التغريب، وفقدان الهوية وانشطارها.

٢- النظرية الاقتصادية:

التي تفسّر ما يجري من تبنّي العنف على أنّه بسبب التهميش، خاصّة أنّ نسبة كبيرة ممن مارسوا الإرهاب في أوروبا من الأحياء الفقيرة.

٣- النظرية المؤسسية:

تفسّر ما يجري من إرهاب على أنّه بسبب تأسيسات تاريخية قديمة عنصرية أنتجت محرّضين، وأدّى ذلك إلى ردّ فعل مقابل؛ فوصول المهاجرين وطالبي اللجوء أمر كان مؤثراً فعلاً، وبعمق، في الاستقرار

«لم يعد اليمين المتطرف الأوروبي بحاجة لبرامج لتعبئة الأوروبيين فهناك من ينوب عنه باسم الإسلام»

الاجتماعي والاقتصادي في أوروبا الغربية، ورأى كثير من الناس في الأجانب منافسين مباشرين لهم على الوظائف والسكن والتعليم والخدمات الصحية، فضلاً عن اعتبار وجود الأجانب أداة تقضي بـ (تمييع) الشخصية الوطنية والقيم والهوية، ما نتج عنه فيما بعد عنف وإرهاب متبادل.

أما عن الأسباب الكامنة، فمن أهمها: أزمة الهوية، التي نتجت في المجتمع الأوروبي بسبب وجود ثلاثة أصناف من الجهاديين؛ الأول من أصل عربي، والثاني أبناء المهاجرين العرب، والثالث دخل في الإسلام حديثاً، والفئة الأولى تعيش أزمة هوية حادة؛ حيث كان عليهم أن يختاروا بين الاندماج والذوبان في المجتمع المضيف، أو أن يظلوا مقيمين في الثقافة الأصلية التي تربى عليها آباؤهم، فإن اختار الواحد منهم الانحياز للثقافة الغربية تغيّر مظهره، وأما من يختار الثقافة الأصلية فيفعل العكس.

ورغم أنّ بلداً مثل فرنسا يطبّق قانون الأرض الذي يقضي بأنّ من ولد على الأرض الأوروبية يحمل جنسية مولده، إلا أنّ واقع الممارسة كان يقضي بشيء آخر، ويعدّ حي زولا بباريس، وحي كرينز بيرك ببرلين، وحي شايارباك ببروكسل، أمثلة على انتشار الجريمة، ما جعل المهاجرين يبحثون عن هوية بديلة، وقد قسّم د. محمود عبد الله، في كتابه «العائدون»، المهاجرين إلى المسيسين الذين بهرتهم نظريات الإسلام السياسي المضاد للإمبريالية، والذين مروا بأديان أخرى، والمجرمين أصحاب السجل الجنائي، وأبناء الجماعات الأقلية مثل الزنوج، وهؤلاء كلهم كانوا حقلاً للتجنيد داخل تيارات الإسلام السياسي، وكان بعضهم عرضة لممارسة الإرهاب.

أما الباحث الإيراني فرهارد خسروخفار، فقد قسّم المتحولين إلى صنفين؛ صنف دخل الإسلام ليفرض لحياته نظاماً، والآخر يراه أداة يتخلص بها من هويته؛ لأنّه شعر بالتمييز والتهميش، ما جعله يشعر بالرغبة في الانتقام، وقد تكون الرغبة في الدفاع عن الدين بعد الرسائل السلبية التي تتحدث عن الاضطهاد الذي يتعرض له المسلمون.

صراع الهوية والاندماج

يرى البعض أنّ الإرهاب في أوروبا نتج بسبب انتهاج الدول الأوروبية سياسات

تكوّنت قناعة لدى غالبية عناصر الرأي العام الأوروبي بأنّ التعددية الثقافية غدت مشكلة بنيوية

الدمج أو التذويب للهوية، أو التعبير الحرّ عن الثقافة والسياسة النسبية، والتوجّه نحو توحيد القومية، وعدم التعددية الثقافية، مثل إنجلترا؛ التي تسمح بالتعددية الدينية والثقافية، ما سمح بجيتوهات دينية وثقافية.

إثر تراكمات تاريخية في حقل المفاهيم الأمنية للهوية، تكوّنت قناعة شبه ذاتية لدى غالبية عناصر الرأي العام الأوروبي، بأنّ التعددية الثقافية هي بالفعل مشكلة بنيوية ذات ثقل ضاغط على توازن أوروبا الداخلي، وقد تحدّدت الإشكالية في صعوبة دمج المجموعات المهاجرة في أنظمة المجتمعات الديمقراطية، خاصة أولئك الذين تحدوهم عقائد تشددية، ويحتشدون في أشكال تنظيمية لا تتلاءم مع النهج الديمقراطي للمؤسسات الأوروبية، وفي مواجهة جملة التحديات التي تثيرها الهجرة في بعدها الثقافي، اعتمدت الدول الأوروبية مخططات من شأنها أن تخفّف من حدة التعارض والتنازع الثقافي والعقدي؛ بين الأغلبية (الساكنة الأصلية)، والأقلية (المجموعات المهاجرة)، وهي كلّها سياسات جعلت من مقاصدها الأساسية التحكم بالديناميكية السياسية والاجتماعية لمجتمعات الهجرة القابعة فوق التراب الأوروبي.

بشكل عام؛ رصد المراقبون أربعة أنواع من السياسات الموجهة للأقليات المهاجرة، منها: سياسات الإبعاد التي طالت

العديد من الأقليات من أصول مهاجرة إلى البلدان الأصلية التي ينحدرون منها، في إطار ما عرف بـ «سياسة إعادة التوطين»، وسياسات رفض الحالة الانعزالية لمثل هذه الأقليات، وتقوقعها حول نفسها في محيطات مجتمعية ضيقة وهشة، هذه السياسات ساعدت بدورها على استفحال أعمال العنف وارتفاع مستويات الجريمة، وتطوير النزوعات الإرهابية لدى شريحة عريضة من عناصرها، وقد ساهمت هذه السياسات في تحرك دول الاتحاد الأوروبي في اتجاه الاقتناع بأنّ الهوية الوطنية هي من أهم العناصر القومية المعرضة للاختراق و«التلطيخ» من قبل المهاجرين، وجود صورة نمطية حول المهاجر في أوروبا ما فتئت تسبّب ذلك الارتفاع الكبير في مستويات (الأكزنوفوبيا) كره الأجانب أو المخاوف المرضيَّة من الأجانب، أو الكراهيَّة العميقة للأجانب، وفي انتشار ظاهرة التمييز العنصري في هذه الدول.

وتتمثل أهمّ الصور السائدة عن المهاجر القادم من جنوب المتوسط أنه يؤمن بدين مغاير للدين المسيحي، وبالتالي فهو يمثل خطراً دينياً يتعين التوجس منه والحذر إزاءه، كما أنّ المهاجر يمثل خطراً ديموغرافياً، ويأتي هذا الخطر من مصدرين اثنين: أولاً: ارتفاع معدل الولادات بين عناصر الهجرة الإسلامية، وثانياً: الانخفاض «المزعج» للمواليد الجدد بين الساكنة الأوروبية، خاصّة في ظلّ التوقعات التي تقول باحتمال أن تتحول بعض المدن الأوروبية إلى مدن ذات أغلبية مسلمة ما بين ٢٠٢٠ و ٢٠٢٥.

ويرى باحثون غربيون أنّ البحث عن الهوية هو أحد أهم الأسباب لممارسة الإرهاب؛ حيث أشار بحث أجراه المعهد الملكي البريطاني للخدمات المتحدة لدراسات الدفاع والأمن، في آب (أغسطس) ٢٠١٧، إلى أنّ بعض النساء رأين في داعش مصدراً لـ «التمكين»، رغم أسلوب التنظيم في إخضاع المرأة والعنف في تطبيق الشريعة، وقتلهم اليزيديات، وأنّ النساء اللاتي انضممن إلى داعش كنّ يبحثن عن هوية جديدة لأنفسهن.

وذكرت «فيديريكا موغيريني»، الممثلة العليا للأمن والسياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي؛ أنّ «هاجس البحث عن مكان لهم في النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي»، هو ما يدفع بعض الشباب الأوروبيين المسلمين للالتحاق بتنظيم داعش، ومعالجة هذه الظاهرة، التي يجري تضخيمها كثيراً في وسائل الإعلام الأوروبية الغربية، تتطلب «خلق المزيد من فرص الشغل ومحاربة الإقصاء الاجتماعي من خلال برامج تربوية وتعليمية».

سياق اجتماعي منتج للعنف

يقول د. جاسم محمد، في تقرير أنتجه المركز الأوروبي لمكافحة الإرهاب: إنّ أحد الجوانب الأكثر خطورة للهجمات الأخيرة في دول أوروبية، مثل: فرنسا، بلجيكا، الدنمارك، أنّها جاءت في سياق اجتماعي - سياسي مشحون، فيما يتعلق بمكان الإسلام، ووجود المسلمين في الديار الأوروبية، حتى في دول لا تقوم على فصل واضح بين المقدس والمدنس، وبالتالي، فالنقاش لا ينحصر بالضرورة في ثنائية العلمانية – الإسلام؛ بل يتعداه إلى مسألة العلاقة مع الآخر الديني المسلم الذي يعدّه البعض في أوروبا جزءاً من النسيج الاجتماعي المحلي، فيما يعدّه البعض الآخر دخيلاً على المجتمعات الأوروبية، وخطراً (الأسلمة) على أمنها المجتمعي والهوياتي.

وقد اتضح هذا التعارض بقوة في ألمانيا التي شهدت مظاهرات مناوئة للإسلام والمسلمين، ومظاهرات مضادة لها تدافع عن التسامح، لكن النقاش يبدو أكثر احتداماً في فرنسا التي تعيش فيها أغلبية مسلمي أوروبا، ومع توالي الهجمات، من المنتظر أن يحتدم النقاش أوروبياً حول ثنائيات متعددة: متطلبات الأمن- مقتضيات الحرية - سلمية الأنا (الأوروبي عموماً) - عنف الآخر (الإسلامي تحديداً)، الإسلام / المسلمون - العلمانية، الإرهاب العابر للأوطان - الإرهاب المحلي، (الضالعون في العمليات الإرهابية الأخيرة لم يأتوا من خارج أوروبا، وإنما خرجوا من رحم مجتمعاتها).

ويضيف: الجديد في هذا المشهد يكمن في ظهور إرهاب محلي في أوروبا ذي امتدادات عابرة للأوطان؛ فقد تعوّدت أوروبا على إرهاب مستورد يضرب أراضيها، لكن الوضع تغير في الأعوام الأخيرة مع الإرهاب المحلي و«الجهاديين» الأوروبيين؛ فهي تتعرض الآن لإرهاب محلي الصنع والأداء، كما أضحت مصدراً للإرهابيين، فالدنمارك مثلاً من كبرى دول الاتحاد تصديراً للمقاتلين، مقارنة بعدد سكان البلاد.

مما سبق، واجهت أوروبا ثلاث معضلات في غاية من التعقيد، تسبّبت في أعمال إرهابية: أولها؛ صعوبة إيقاف تنقل «جهاديين» أوروبيين إلى مسارح «الجهاد» في الشرق الأوسط (شق أمني بالأساس)؟ وكيف يمكن تفادي هجمات إرهابية جديدة على التراب الأوروبي (شقّ أمني)؟ وكيف تمكن الحيلولة دون تحوّل شباب أوروبيين من مجرد منحرفين إلى إرهابيين (شقّ تربوي اجتماعي)، والشقّ الأمني هو الغالب، حتى الآن، في التحركات الأوروبية؛ بسبب التهديد المباشر الذي تشكّله الجماعات الإرهابية.

إنّ هـذه المعضـلات لـم تجـد لهـا أوروبـا سـوى الحـلّ الأمـني، ورغـم ذلـك؛ فهنـاك جـدل في تطبيـق بعـض الإجـراءات، يقـول جاسـم محمـد: تتفـق الـدول الأوروبيـة عمومـاً عـلى بعـض الإجـراءات الواجـب العمـل بهـا عـلى الصعيديـن الوطـني والأوروبي، مثـل: محاربـة الدعايـة الجهاديـة عـبر الإنترنـت، وتدعيـم الوحـدات المختصة في محاربـة الجريمـة عـبر الإنترنـت، والتنسـيق الأوروبي بتدعيـم المراقبـة عـلى حـدود شـنجن الأوروبيـة، لضمـان مراقبـة وتقفّـي تنقـلات الأشـخاص المشـتبه بهـم، وكمـا سـنلاحظ؛ فإنـه رغـم الحديـث عـن مسـألة الاندمـاج ودور المنظومـة التربويـة في مواجهـة الفكـر المتطـرف، والجنـوح نحـو العنـف والإرهـاب، فـإنّ المقاربـة الأمنيـة هـي سـيدة الموقـف، بالنظـر إلى حجـم وصـدى العمليـات الأخـيرة.

وفـق جاسـم؛ يحتـاج الأمـر إلى التوقـف عنـد ثلاثـة أبعـاد أساسـية لمسـألة الإرهـاب ومحاربتـه أوروبيـاً: التفاعـل بـين نمـاذج فرعيـة للإرهـاب ووضـع المسـلمين، وإشـكالية العلاقـة بـين الأنـا والآخـر في سـياق يتحـول فيـه الآخـر إلى جـزء مـن الأنـا، وأيضـاً المقاربـة الأمنيـة بمضامينهـا ومحاذيرهـا.

أيديولوجيا اليمين المتطرف

انتـشرت خـلال العقديـن الأخيريـن أيديولوجيـا وسـلوك الجماعـات الإسـلامية المغاليـة مـن جهـة، والإرهابيـة مـن جهـة أخـرى، مـا دفـع إلى المغـالاة بالتوجهـات المتطرفـة المعاديـة للإسـلام وانخفـاض سـقف التسـامح في المجتمعـات الأوروبيـة، وظهـور أوسـاط سياسـية واجتماعيـة متخوفـة مـن الإسـلام.

أصبحـت الكراهيـة المتبادلـة بـين القطبـين المتطرفـين؛ الأوروبي والإسـلامي، وقـوداً للإقصـاء المتبـادل، فضـلاً عـن الامتـدادات العابـرة للأوطـان، والتداعيـات الناجمـة عـن أعمـال الجماعـات الإرهابيـة، وبعـض سياسـات القـوى الكـبرى الغربيـة في أجـزاء مـن العالـم الإسـلامي، ومـن ثـم وجـد المسـلمون أنفسـهم بـين مطرقـة القـوي اليمينيـة المتطرفـة وغـير المتطرفـة المعاديـة لهـم، وسـندان الجماعـات الإسـلامية المتطرفـة والإرهابيـة؛ فالفئـة الأولى لا تعدّهـم في أحسـن الأحـوال أوروبيـين بمـا فيـه الكفايـة، وفي أسـوأ الأحـوال جسـماً دخيلاً عـلى النسـيج الاجتماعـي الأوروبي، برافـده الديـني والحضـاري اليهـودي - المسـيحي؛ بـل وجماعـة متطرفـة تريـد فـرض معتقداتهـا الدينيـة، وتغيـير هويـة المجتمعـات الأوروبيـة.

أمـا الفئـة الأخـيرة؛ فـترى أنّهـم ليسـوا مسـلمين بمـا فيـه الكفايـة لتعرضهـم لعوامـل التعريـة الحضاريـة والدينيـة والهوياتيـة؛

بسبب اندماجهم في المجتمعات الأوروبية، منصبة نفسها ولياً عليهم، لإعادتهم إلى «الطريق المستقيم»، ساعية إلى دقّ إسفين بينهم وبين المجتمعات الأوروبية التي هم جزء منها، وهنا بيت القصيد بالنسبة إلى الجماعات الإسلامية الإرهابية المعادية للغرب عموماً؛ فباستهدافها رموز حرية التعبير، أو نمط العيش الغربي باسم الإسلام، تمنح حجة قوية للمعادين للمسلمين.

وبالتالي، لم يعد اليمين المتطرف الأوروبي في حاجة إلى برامج دعائية وإقناعية لتعبئة الأوروبيين؛ فهناك من ينوب عنه وباسم الإسلام، والحقيقة أنّ الطرفين، الإسلامي والأوروبي (اليمين المتطرف)، يغذيان ويتغذيان من خطاب وسلوك بعضهما، ولهما مصلحة متبادلة في تغذية الاحتقان السياسي والاجتماعي، والمشكلة أنّ اقتناعات اليمين المتطرف بدأت تلقى مزيداً من التقبل في أوساط واسعة من المجتمعات الأوروبية، وكلّ ذلك أدّى بالنهاية إلى العنف في أوروبا.

تمدّد السلفية الأوروبية

بَنت السلفية قواعدها الخلفية في الأحياء الهامشية في أوروبا، خاصّة السلفية الإصلاحية باحثة بذلك عن خلق موازين قوى جديدة من أجل التفاوض على بعض المكاسب كالحقّ في إنشاء دور عبادة، ومساجد في هذه الأحياء، ثم طلب بناء مسابح غير مختلطة، ومقابر غير مختلطة، ومطلب الأكل الحلال في مطاعم المدارس، وفي صفوف الجيش والشرطة، ثمّ مطلب الحصول على إجازة إبان المناسبات الدينية، إضافة إلى طلب الترخيص بفتح مجازر إسلامية، إبان عيد الأضحى، الحق في الحجاب في المؤسسات، والأماكن العمومية،..إلخ، صحيح أنّ هذه المطالب ترفعها أيضاً جمعيات إسلامية أخرى غير سلفية، لكن سيظهر كيف تجتهد السلفية لتجعل من هذه المطالب، ورفض الدولة تحقيق جزء منها، وسيلة لتجييش الشباب من أجل إلحاقهم بالحركة.

اهتم السلفيون بالنمو في أوروبا، وكانت ألمانيا، عن طريق المهاجرين الأتراك، محطة عظيمة؛ حيث رصد جهاز الاستخبارات الداخلي الألماني ٤٤ ألف متشدّد، لكن الخطر الأكبر شكلته المجموعات السلفية التي تزايدت أعدادها من ٣٨٠٠ العام ٢٠١١، إلى ٩٧٠٠ اليوم.

وجاءت زيارات الداعية، أبو إسحاق الحويني، لبرلين، وما جرى فيما بعد من توقيف وفد ألماني سلفي في مطار القاهرة، العام ٢٠١٢، لتدلل على ما سبق، وأيد الأمن الألماني ذلك؛ حيث إنّه عقب التحقيق

معهـم تبـين أنّ قائدهـم هـو الداعيـة الألمـاني سـيفين لـو، المعـروف بـ «أبـو آدم»، وأنـه أحـد دعـاة السـلفيين بأوروبـا.

لقـد فـرض هـذا الواقـع عـلى الحكومات الأوروبيـة تطويـر خططهـا الأمنيـة، ورفـع مسـتوى التنسـيق الأمـني والاسـتخباراتي، واتخـاذ الإجـراءات الأمنيـة، مثـل تعزيـز التعـاون الاسـتخباراتي بـين الـدول الأوروبية في مجـال مكافحـة الإرهـاب، ويعـدّ اقتراح إنشـاء مكتـب تحقيقـات فيـدرالي أوروبي، مماثـل لـ (FBI) في أوروبـا، لإنشـاء قاعـدة اسـتخباراتية حقيقيـة لوقـف المعابـر الحدوديـة الـتي لـم يتـم التصـدي لهـا بشـكل أسـاسي، مـن أبـرز أشـكال التعـاون الأمـني الأوروبي لمواجهـة التطـرف والإرهـاب.

علي نوار
كاتب ومترجم مصري

الإرهاب والتقنيات: من الديناميت إلى الإنترنت

يشهد العالم في الوقت الحالي عملية مفرطة للتقنيات الجديدة والناشئة، وكانت التقنيات المتقدّمة في السابق حكراً فقط على العلماء والموظفين الحكوميين والعسكريين، لكنّ التقنيات باتت في يومنا هذا متاحة للجميع، وصارت هذه التقنيات واسعة الانتشار وبخسة الثمن ويسيرة الاستخدام، ورغم أنّها قد تستخدم بحيث تكون قاطرة للتنمية والازدهار، لكنّها تضمّ في طيّاتها أيضاً خطر سوء استغلالها من قبل متطرّفين يمكنهم استخدامها بطرق غير متوقّعة ومميتة.

وعلى مدار التاريخ، لم يسبق أن كانت القوى العنيفة غير الحكومية تتواصل مع بعضها على مستوى العالم أو مؤهّلة تقنياً، أو تملك هذه القدرة على جمع التمويل، وهناك ثلاثة أسباب لذلك؛ الأول هو أنّ التقنيات كانت في يد قلّة قليلة في السابق، لكنّ ثلثي سكّان العالم يحملون في أيديهم جهاز هاتف ذكي أقوى ملايين المرّات من نظام الملاحة الذي أوصل «أبولو ١١» إلى القمر وعلى متنه بشر عام ١٩٦٩.

يشهد العالم في الوقت الحالي عملية مفرطة للتقنيات الجديدة والناشئة

السبب الثاني؛ أنّ التقنيات الجديدة عزّزت بصورة كبيرة من الانتشار العالمي للجماعات الإرهابية وقدرتها على التجنيد وتلقين أعضائها الجدد دون أدنى تكلفة مادية، بل وبشكل سرّي كذلك في جميع أرجاء الكوكب. وثالثًا: يمتلك الإرهابيون الآن منفذاً إلى التقنيات العسكرية، إنّ جانباً ليس بالهيّن من التقدّم التقني لهو سلاح ذو حدّين، يمكن استخدامه لأغراض سلمية وعسكرية.

الكلاشنيكوف على وجه التحديد

ويعود استغلال التقنّيات المعاصرة من قبل أطراف غير حكومية إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وعلى مدى ما يزيد عن قرن كامل، كان السلاح الرئيس للجماعات الإرهابية هو الديناميت والأسلحة النارية «الكلاشنيكوف على وجه التحديد»؛ فبعد قليل من اكتشاف ألفريد نوبل للديناميت، عام ١٨٦٧، تبادلت الجماعات المناهضة للدولة طريقة استخدامه، ما نتج عنه موجة من الهجمات الدامية في ٥٠ دولة على الأقل.

ثم جاء إنتاج بندقية كلاشنيكوف طراز «إيه كيه-٤٧»، عام ١٩٥٠، ليؤدّي إلى موجة ثانية عالمية من العنف السياسي، وعلى خلفية إقبال المتطرّفين وعصابات الجريمة المنظّمة والإرهابيين و«المناضلون في سبيل الحرّية» على استخدامها، تصبح

تجلّى استغلال هذه المنصّات في الحرب النفسية بوضوح في قدرة تنظيم داعش على تجنيد أتباع له من جميع أنحاء العالم

حصيلة ضحايا هذا السلاح ربع مليون إنسان كل عام.

كما أنّ الأطراف غير الحكومية لطالما اهتمّت بالحصول على واحتكار الأسلحة الجديدة، فوفق فرضية «التمكين المميت»، ستعتمد القوى العنيفة غير الحكومية التقنيات الحديثة وتطوّعها بما يتوافق وأهدافها فور أن تكون هذه التقنيات متاحة وبخسة وسهلة الاستخدام والنقل والإخفاء وأكثر فعالية.

ويفضّل الإرهابيون الأسلحة النافعة في أكثر من سياق بحيث تكون «ذات آثار ضخمة وتضفي قيمة رمزية ولها عدّة استخدامات لا يمكن التنبّؤ بها»؛ لذا من الضروري الاهتمام بوسائل استغلال وتطوير الإرهابيين للتقنيات الجديدة بما يخدم أهدافهم الشريرة، بهدف مواجهة «المجهول» وعدم الوقوع في الأخطاء نفسها الناتجة عن «ضعف التخيّل»، مثلما أشار تقرير لجنة التحقيق في هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١.

العبوّات الناسفة

ومن أبرز الأمثلة على ذلك؛ العبوّات الناسفة، فقد كان هذا النوع من المتفجّرات، خلال الفترة بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٦، هو السبب في ٧٠٪ من القتلى في العراق و٥٠٪ في أفغانستان، وقد أظهرت

«مكافحة الاستخدام السيّئ للتقنيات ليس سهلاً، فتقنية التشفير تحمي الإرهابيين من محاولات الشركات لحذفهم من شبكاتها الاجتماعية، وسيستمرّ انتشار التقنيات ذات الاستخدام المزدوج في تمكين المتطرّفين»

دراسة مفصّلة أنّ الفترة بين ٢٠٠٦ و٢٠١٤ وأثناء حربي العراق وأفغانستان، شهدت إلمام المتطرّفين بالإجراءات المكلّفة التي كان يجرى اتّخاذها للتعامل مع عبواتهم الناسفة، وأنّهم تمكّنوا من تطوير آليات تفجيرها لتستمر على معدّل الفتك نفسه، بل وزيادته، مثلما كان الوضع في أفغانستان.

وقد خصّصت الولايات المتحدة مبلغ ٢١ مليار دولار لمكافحة العبوات الناسفة، لكنّ المتطرّفين نجحوا في تطويرها بابتكارات بسيطة منخفضة الجودة وبموادَّ يمكن الحصول عليها من الأسواق، ويمكن نسب الفشل الأمريكي في حربَي العراق وأفغانستان جزئياً إلى حقيقة أنّ القوات الأمريكية كانت عاجزة عن التصدّي للجماعات المتطرّفة التي كانت تقاتلها، رغم أنّها أبلت حسناً في ساحات المعارك.

وقد عبّر الجنرال مونتجومري ميجس، عام ٢٠٠٧، عن هذه النقطة قائلاً: «هناك استثمار بقيمة ثلاثة مليار دولار سنوياً في مجال تقنيات المعلومات، بينما يحصل عدوّنا على هذه التقنيات في الأسواق العالمية لها وعبر الإنترنت، بصورة مجانية حرفياً»، بالتالي، يصبح من الصعب على القوات المسلّحة التقليدية، مع مرور الوقت، مواجهة الإمكانات التقنية للمتطرّفين والجماعات الإرهابية في المناطق التي تدور بها النزاعات.

وجدير بالذكر؛ أنّ الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة تنبّأت، عام ١٩٩١؛ بأنّ «إرهابيَّ الغد سيكون بوسعه إحداث قدر أكبر من الضرر باستخدام لوحة المفاتيح مقارنة بالقنبلة»، وبالفعل أضحت شبكة الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي والأجهزة المستخدمة للولوج إليها خاصّة الهواتف الذكية، هي الأسلحة الحربية الرقمية الجديدة، وبات المتطرّفون يستعملون هذه الأدوات لشنّ الحروب النفسية وتجنيد أتباع جدد

هناك استثمار بقيمة ثلاثة مليار دولار سنوياً في مجال تقنيات المعلومات

والتخطيط وتنفيذ الهجمات، وكذلك جمع الأموال وضمان الحفاظ على هوياتهم سرّية.

التقنية والحرب النفسية

كتب سون تزو في القرن الخامس الميلادي «الحرب خدعة»، ويبدو أنّ الإرهابيين أدركوا مدى تأثير الحرب النفسية، ولعلّ هذا ما يفسّر حرص أسامة بن لادن على إرسال خطبه عبر الفاكس وفتاويه إلى وسائل الإعلام، أمّا اليوم، فتسمح التقنيات للإرهابيين بالوصول وبشكل غير مسبوق إلى عيون وعقول ملايين الأشخاص عن طريق الإنترنت والمنصّات الاجتماعية.

ورغم أنّ عُمر شركات التواصل الاجتماعي هو ٢٠ عاماً فحسب، لكنّها أعادت تشكيل الحياة المعاصرة سواء بالإيجاب أو بالسلب، فقد أسهمت هذه المنصّات في ظهور حركات تهدف لتحقيق العدالة الاجتماعية، مثل: «#أنا_أيضاً» و«#حياة_السود_مهمّة»، إلّا أنّ المنصّات نفسها أدّت كذلك إلى زيادة تأثير الجماعات المتطرّفة عن طريق إطلاق حملات تشجّع على الشقاق المجتمعي والتمييز على أساس العرق أو النوع أو الثقافة أو التوجّه السياسي أو الدين، على غرار دعاة تفوّق العرق الأبيض أو السلفيين الجهاديين وغيرهم.

وكما هو معروف، تعتمد وسائل التواصل الاجتماعي على جذب الانتباه

«يكثّف اليمينيون المتشدّدون جهودهم لتجنيد الجيل الجديد من المتطرّفين؛ حيث يستقطبون الشباب على «يوتيوب» و«تويتش» و«ستريم» و«دي لايف»، والتي يرتادها إجمالاً نحو مليارين و٢٥٠ مليون مستخدم شهرياً»

لتحقيق الكسب. وصُمّمت الخوارزميات الخاصة بها كي تسبر أغوار النفس البشرية وتعمل كمرآة لاحتياجاتنا وأعمق خيالاتنا، ويستغلّ مطوّرو المنصّات تلك الخوارزميات، ويعملون على المشاعر الإنسانية لتحديد المحتوى الذي يشدّ الاهتمام.

نتيجة لذلك؛ تجمع الشبكات الاجتماعية معلومات حول كلّ شيء وكلّ شخص، ما يسهّل بالتالي على أفراد كلّ مجموعة التلاقي، بيد أنّها باتت، للأسف، أداة تتيح استغلال وتوجيه الأشخاص لارتكاب جرائم مثل القتل والإرهاب وبدؤوا أفعال التمرّد ومساعدة آخرين على الانخراط في نزاعات وحروب.

وتجلّى استغلال هذه المنصّات في الحرب النفسية بوضوح في قدرة تنظيم داعش على تجنيد أتباع له من جميع أنحاء العالم: ٤١،٤٩٠ شخصاً من ٨٠ دولة انضمّوا له، وسقط البعض منهم في فخّ الاعتقاد بأنّهم سيعيشون في المدينة الفاضلة أو تنفيذهم مهمّة إنسانية، بل وحصل بعضهم على وعود بدراسة الطب وإيجاد فرصة عمل.

شِراك الأصولية

استعان الإرهابيون بخبراء في مجال التلاعب لإلهام ونشر رسائل معيّنة باللّغات والثقافات المطلوبة، وقد دأب أنور العولقي، وهو أمريكي من أصول يمنية وأحد أبرز رموز الدعاية لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، على استخدام منصّتي «فيسبوك» و«يوتيوب» لاستقطاب عناصر جديدة للتنظيم، وساق كثيرين لشِراك الأصولية، مثل عمر فاروق عبد المطلب، الذي حاول تفجير قنبلة على متن طائرة.

وكانت هذه المحاولة الفاشلة هي الدافع وراء شنّ هجوم بالطائرات المسيّرة «درونز» والذي أودى بحياة العولقي في نهاية المطاف، لكنّ التأثير الدعائي للرجل

طائرة بدون طيار في بولندا

استمرّ بل وازداد قوّة بعد مقتله، وخلال الأعوام بين ٢٠١٦ و٢٠٢٠، أقرّ ما لا يقلّ عن ٨٩ متطرّفاً بأنّهم كانوا على صلة به، وكُتب لأفكاره البقاء، بما فيها دليله لـ «٤٤ وسيلة لدعم الجهاد»، الذي نشره عبر الإنترنت كنوع من «رسالة من القبر».

بالمثل، تُستخدم مقاطع الفيديو لتخويف الخصوم وإخراس المعارضين ونشر الفكر الأصولي بين آخرين كي يتوحّدوا؛ ففي أفغانستان جرى تصوير عمليات قتل حقيقية بهدف تشجيع الأفغان على تبنّي الأفكار المتشدّدة ويصبحوا متطرّفين، وفي الوقت نفسه تهديد للجواسيس أو الخونة المحتملين، وقد اعتادت حركة طالبان تسجيل عمليات التفجير بالعبوات الناسفة ورفعها عبر منصّة «تويتر» لتجنيد وجمع الأموال وإذكاء نيران التطرّف.

بهذه الطريقة، طوّرت الحركة إستراتيجية تجمع بين التخويف وعروض العفو لخلق إحساس بأنّ النصر حليفها لا محالة، ولعلّ هذه الرسائل التي تمزج الإجبار مع الإقناع كانت هي السبب وراء نجاحها في اكتساب مزيد من الأراضي وتحقيق انتصارات في ولايات من البلاد دون أدنى مقاومة رغم أنّ بعض المدن كانت تحظى بدفاعات متينة حقاً.

تجنيد الجيل الجديد من المتطرّفين

تعمل شبكات التواصل الاجتماعي كمكبّرات صوت فعّالة لجذب الشباب الساذج

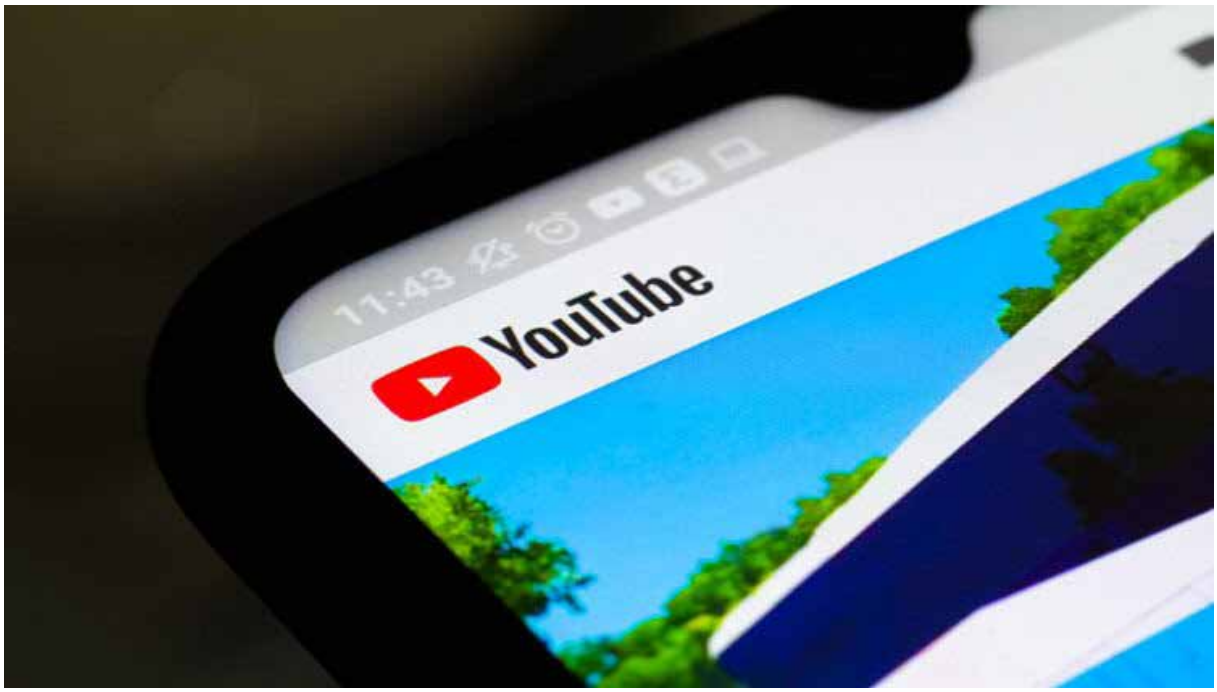

يزور ما لا يقل عن ملياري مستخدم نشط موقع «يوتيوب» شهرياً

نحو التطرّف؛ ففي عام ٢٠١٦، لعبت هذه المنصّات دوراً ما في ٩٠٪ من حالات التوجّه نحو الأصولية، وفي ٢٠١٨، أشار تقرير لدراسة مدى تأثير شبكة تنظيم داعش على موقع فيسبوك إلى وجود ما لا يقلّ عن ألف حساب من ٩٦ دولة يؤيّدون التنظيم الإرهابي، ليخلص إلى نتيجة مفادها انتشار التنظيم عبر «فيسبوك» بشكل عام واحترافي ومطّرد.

ويكثّف اليمينيون المتشدّدون أيضاً جهودهم لتجنيد الجيل الجديد من المتطرّفين؛ حيث يستقطبون الشباب على الإنترنت في المنصّات الأوسع انتشاراً، مثل «يوتيوب» و«تويتش» و«ستريم» و«دي لايف»، والتي يرتادها إجمالاً نحو مليارين و٢٥٠ مليون مستخدم شهرياً، أي قاعدة عريضة للتجنيد بالنسبة للإرهابيين.

ويزور ما لا يقل عن ملياري مستخدم نشط موقع «يوتيوب» شهرياً، لمشاهدة مليار ساعة على الأقل من المحتوى يومياً، الأمر الذي يعدّ تربة خصبة بالنسبة للمتطرّفين الذين يقدّمون في مقاطع الفيديو خاصتهم دعماً معنوياً، ثم تشجّع مشاهديها على الانضمام للجماعات الإرهابية وارتكاب هجمات باسمها، بل إنّ هناك مقاطع تتضمّن شرحاً مفصّلاً وخطوة بخطوة لكيفية صناعة العبوات الناسفة وأفضل المواقع لزرعها.

بالمثل، أدرجت شبكة التوعية بمخاطر الأصولية في الاتحاد الأوروبي «ران» منصّات ألعاب الفيديو ضمن «بؤر» نشر الفكر التطرّف، فعلى سبيل المثال؛ منصّة «تويتش»، وهي خدمة للبثّ المباشر

الدعاية النازية عبر اليوتيوب

لألعاب الفيديو والرياضات الإلكترونية، يرتادها ٣٠ مليون زائر يومياً، وتتراوح أعمار ٢١٪ بين ١٣ و١٧ عاماً، وكانت هذه الخدمة هي التي أذاع عبرها منفّذ الهجوم على كنيس هالي في ألمانيا اعتداءه.

كما أنّ منصّة «ستريم» هي أضخم موقع رقمي لبيع الألعاب لمستخدمي الحواسب، ولديها ١٢٠ مليون مستخدم نشط كلّ شهر، وتضمّ مكتبة «ستريم» ألعاباً تتضمّن تصوّرات متطرّفة، مثل انتصار ألمانيا في الحرب العالمية، وكذلك تطبيق «ديسكورد» المصمّم لمزاولي ألعاب الفيديو، لكنّه تحوّل إلى أحد الأدوات الرقمية التي يستخدمها اليمين المتشدّد.

ويستخدم «ديسكورد» ١٤٠ مليون شخص كلّ شهر، وتوجد به خوادم خاصّة لنشر فكر النازيين الجدد وخطابات اليمين المتشدّد ومحتوى مصوّر يحرّض على الكراهية، وبالفعل، تجمّع المتظاهرون في شارلوتسفيل الذين نظّموا مسيرة تحت شعار «وحّدوا اليمين» عبر خوادم وقنوات «ديسكورد».

التقنية تلهم الإرهاب

يعتاد الإرهابيون تكرار أنماط هجماتهم في جميع أنحاء العالم؛ فقد بدأت سلسلة الاعتداءات الجهادية ضدّ مدن كاملة بعملية في نيس بفرنسا، في حزيران (يونيو) ٢٠١٦، والتي ألهمت الهجوم على أحد أسواق أعياد

تنظيما «داعش» و«كومبات ١٨» النازي حقّقا أرباحاً تقدّر بآلاف الدولارات شهرياً بفضل إعلانات الشركات الكبرى

الميلاد في برلين، في كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه، وكذلك هجمات برشلونة في آب (أغسطس) ٢٠١٧.

قبلها، تحديداً في آذار (مارس) ٢٠١٥، بدأت سلسلة أخرى من الهجمات اليمينية المتشدّدة بالاعتداء على مسجدين في كرايست تشيرش حيث قتل المهاجم ٥١ شخصاً، بينما كان يبثّ مباشرة وقائع هجومه عبر منصّة «فيسبوك»، التي حذفت في أول ٢٤ ساعة عقب الحادث ١,٥ مليون نسخة من مقطع الفيديو.

لكنّ هذه العملية ألهمت اعتداءات أخرى، في الباسو وبواي وبايروم وأوسلو وهالي، فقد بات من الواضح أنّ الإرهابيين يقلّدون بعضهم بعضاً، ويعملون وفق نموذج مشترك على اختلاف توجّهاتهم، ويتكوّن من عدة مراحل: الأولى نشر بيان عبر الإنترنت، ثم استهداف الفئة المنشودة، بينما يعرضون الهجوم في بثّ مباشر عبر الإنترنت، وأخيراً دراسة تفاصيل العمليات واستخلاص الدروس وتكرار الدعوات لشنّ مزيد من الاعتداءات.

والحقيقة أنّ الكراهية تدرّ أرباحاً هائلة كذلك؛ فالجماعات التي تتبنّى أفكار تفوّق العرق الأبيض تجني الكثير من المحتوى المبني على الكراهية، كما أنّ حملات التمويل وطلب العملات الرقمية تضمن لها مصادر دخل جبّارة، وتشير تقارير عديدة إلى أنّ الإرهابيين يموّلون

الجماعات التي تتبنّى أفكار تفوّق العرق الأبيض تجني الكثير من المحتوى المبني على الكراهية

أنفسهم بفضل منصّات مثل «فيسبوك» و«يوتيوب» و«جو فاند مي» و«تيليجرام» و«واتساب»، وكذلك توصّل بحث استقصائي لصحيفة «تايمز» إلى أنّ الإرهابيين من تنظيمي «داعش» و«كومبات ١٨» النازي حقّقا أرباحاً تقدّر بآلاف الدولارات شهرياً بفضل إعلانات الشركات الكبرى التي تظهر في مقاطع الفيديو التي بثّها التنظيمان، ومن بين هذه العلامات «مرسيدس بنز» و«ويتروز».

ما الذي ينبغي عمله؟

من الواضح أنّ مكافحة الاستخدام السيّئ للتقنيات ليس سهلاً، فتقنية التشفير تحمي الإرهابيين من محاولات الشركات لحذفهم من شبكاتها الاجتماعية، وسيستمرّ انتشار التقنيات ذات الاستخدام المزدوج في تمكين المتطرّفين؛ لذا فمن المهم الالتزام بالقوانين مثلما حدث في أوروبا بالحدّ من القنابل التي تحوي الديناميت، والتعامل مع القضايا الاجتماعية التي تؤدّي إلى التشدّد، كما فعلت الولايات المتحدة أوائل القرن العشرين.

كما أنّه من الضروري كذلك توعية العامّة بالمخاطر الجديدة، على غرار تحذير وزارة الأمن القومي الأمريكي، عام ٢٠٢٢، من أنّ الجماعات المتشدّدة داخل الولايات المتحدة طوّرت خططاً لاستهداف شبكة التيار الكهربي في البلاد، كما خرجت تحذيرات مشابهة من هجمات ببرمجيات الفدية ضد منشآت حيوية في أستراليا والولايات المتحدة وبريطانيا.

ومـن أبـرز الأولويـات في هـذا الصـدد تـأتي توعيـة الشـباب بمخاطـر الإنترنـت والشـبكات الاجتماعيـة وإدمـاج هـذه التوعيـة في السياسـات التعليميـة، وكذلـك صياغـة خطـط للحـراك الوطـني بهـدف الوقايـة مـن التطـرّف العنيـف.

سعود الشرفات
كاتب أردني

الإرهاب الإلكتروني.. الرعب على الأبواب

يعرَّف «الإرهاب الإلكتروني» بأنّه: «استخدام التقنيات الرقمية لإخافة وإخضاع الآخرين، أو القيام بمهاجمة نظم المعلومات على خلفية دوافع سياسية أو عرقية أو دينية»، ويعدّ الأمريكي (بول كولينز) أول من صاغ هذا المفهوم.

ومنذ بداية الألفية الثانية، لم يعد شيء يثير الذعر لدى الأجهزة الأمنية والاستخبارية، وأجهزة مكافحة الإرهاب في العالم، خاصّة في الغرب وأمريكا، تحديداً أكثر من الرعب والخوف من «الإرهاب الإلكتروني»، ومرادفاته (الشبكي أو السيبيري).

وإذا كان هناك من اتجاه في ظاهرة الإرهاب يمكن أن يكون محتمل الحدوث والزيادة، فإنّ الإرهاب الإلكتروني هو على رأس هذه الاحتمالات وأكثرها كارثية.

ولعلّه من المفيد عالمياً، أنّ هذا النوع من الإرهاب لا يزال، حتى الآن،

« لم يعد شيء يثير الذعر لدى أجهزة مكافحة الإرهاب في العالم أكثر من الرعب والخوف من الإرهاب الإلكتروني»

يأخذ شكل «إرهاب الدولة»، ولم يصل، أو يتجذّر، كأسلوب في تنفيذ الإرهاب بيد الأطراف الفاعلة من غير الدول مثل؛ الجماعات والمنظمات الإرهابية. كما أنّ ما يرتكب من قبل أفراد أو مجموعات صغيرة من الأفراد «عصابات»، وهم ينتشرون في كثيرٍ من الدول، يتركز حتى الآن في عمليات الغشّ والاحتيال، وتبييض الأموال عبر ما يعرف بالشبكة السوداء.

ولذلك، بدأ هذا النوع من الإرهاب يحظى بدراسة واهتمام من قبل الأجهزة الأمنية والاستخبارية في العالم، كما أخذ يحظى باهتمام الباحثين والخبراء والأكاديميين المهتمين بظاهرة الإرهاب، خاصة أنّ هذا النوع من الإرهاب لا تقتصر آثاره الكارثية فقط على الخسائر في الأرواح؛ بل في خسائره الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والثقافية. وبغضّ النظر أكانت الدولة صغيرة أو كبيرة، قوية أو ضعيفة.

وتعدّ الصين الشعبية، وروسيا الاتحادية، وكوريا الشمالية من أكثر الدول المتهمة بممارسة هذا الإرهاب، ولعلّ أهم مثال على إرهاب الدولة الإلكتروني، هو تجسّس الروس على الانتخابات الأمريكية التي فاز بها دونالد ترامب، ولا تزال تلقي بظلالها على العلاقات الأمريكية الروسية وتثير جدلاً داخلياً في أمريكا.

يمكن القول إنّ هذا النوع من الإرهاب العالمي؛ هو الأكثر تمثيلاً وتجسيداً وتعبيراً عن العولمة، ويشكّل هذا النوع، أو هذا الرأس الهيدري المتوحّش (نسبة إلى الوحش الأسطوري في الميثولوجيا الإغريقية هيدرا)، أحدث وأخطر أنواع الإرهاب فتكاً بالأطراف الفاعلة من الدول، نظراً إلى كثافة استخدامه آليات العولمة التكنولوجية المختلفة، ومن أحدثها شبكة وسائل التواصل الاجتماعي، والاستخدام الإستراتيجي للتحفيز البصري، وصور العنف الرهيبة، ومصفوفة طويلة من المتطفلين الشبكيين (والهاكرز)، ودون الخوض بالتفصيل في هذا النوع، تكفي الإشارة هنا إلى الكارثة الاستخبارية التي تسبّب بها (جوليان بول أسانج)، مؤسّس موقع (ويكليكس) للمجمع الاستخباري (الأمريكي)، والعالمي بشكل عام، بتسريبه آلاف الوثاق

« ما يرتكب من قبل أفراد أو مجموعات صغيرة وهم ينتشرون في كثيرٍ من الدول يتركز في عمليات تبييض الأموال»

السرية لوسائل الإعلام بالتعاون مع الجندي الأمريكي، برادلي مينغ، عام ٢٠١٠، ثمّ الهلع الذي أصاب العالم الغربي بعد تسريبات المحلل الاستخباراتي الأمريكي، إدوارد سنودن، أواخر ٢٠١٣.

ولذلك ليس من المستغرب، حساسية وخوف الساسة الأمريكان أكثر من غيرهم من خطورة هذا النوع من الإرهاب، فقد كان الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، قبل عقدين من الزمن، عام ١٩٩٦، قد قام بتشكيل «لجنة حماية منشآت البنية التحتية الحساسة».

وكان الاستنتاج الأول لهذه الهيئة؛ هو أنّ مصادر الطاقة الكهربائية والاتصالات، إضافة إلى شبكات الكمبيوتر، ضرورية بشكل قاطع لنجاة أمريكا من هجوم مماثل، وبما أنّ هذه المنشآت تعتمد بشكل كبير على المعلومات الرقمية، فإنّها ستكون الهدف الأول لأية هجمات إرهابية تستهدف أمنها.

وفي أعقاب ذلك، قامت كافة الوكالات الحكومية بإنشاء هيئاتها ومراكزها الخاصة، للتعامل مع احتمالات الإرهاب الإلكتروني؛ فقامت وكالة المخابرات المركزية بإنشاء مركز حروب المعلوماتية، ووظّفت ألفاً من خبراء أمن المعلومات، وقوة ضاربة على مدى ٢٤ ساعة لمواجهة الإرهاب الإلكتروني.

وقد بدأ هذا الخوف والتحذير الجدّي من خطر هذا الإرهاب، عقب هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، وحرب أمريكا على الإرهاب، وشعور الساسة والخبراء الأمريكان بأنّ مصالحهم في العالم أصبحت مستهدفة أكثر؛ حيث يخشى الخبراء الأمريكان أن يأخذ أيّ هجوم إرهابي إلكتروني في المستقبل، على أمريكا، أبعاداً أكثر خطورة، بحيث يصيب شبكات حيوية رئيسة بالشّلل، خصوصاً إذا ترافق مع هجوم أكثر كلاسيكية.

فقد ذكر مايكل فاتيس، المدير السابق لوحدة الجريمة عبر المعلوماتية في الشرطة الفدرالية، أنّ إمكانية شنّ هجمات عبر الإنترنت ضدّ الشبكات المعلوماتية للولايات المتحدة وحلفائها، تشكل فرضية قوية، وأنّه ثمة خطر شنّ هجوم معلوماتي

«هاريس ميلر، المسؤول في جمعية تكنولوجيا المعلومات الأمريكية: العدد المتزايد للهجمات المعلوماتية، يؤكّد هشاشة وضع الولايات المتحدة»

يتسبَّب بأضرار كبرى، وأنّ شنّ هجوم من هذا النوع قد يضعف، إلى حدّ كبير، الشبكات المعلوماتية للولايات المتحدة وحلفائها.

وأوضح هاريس ميلر، المسؤول في جمعية تكنولوجيا المعلومات الأمريكية، أنّ العدد المتزايد للهجمات المعلوماتية، يؤكّد هشاشة وضع الولايات المتحدة، وقال: إنّ «الإرهابيين يستطيعون أن يستعملوا البنى المعلوماتية ضدّنا، عبر شلّ شبكاتنا، وإثارة خلل في العمليات في شكل مباشر، والتسبّب بأضرار للشبكات والأفراد».

وعدّ السيناتور الأمريكي روبرت بينيت، أنّ هذه الهجمات يمكن أن تتزامن مع هجمات أكثر أهمية، «لإحداث أقصى درجات الخوف والترهيب، و»في حال تنفيذ هجوم على أهداف ملموسة، ستكون الأضرار أكبر، إذا ترافق مع هجوم ثانٍ ضدّ الأجهزة المعلوماتية التي تتولّى تنسيق عملية الردّ على هذه الكارثة»، وأضاف: «سيحصل تدمير، كما أنّنا لا نستطيع أن نقوم بأيّ شيء للرد على الهجوم؛ لأنّ شبكاتنا المعلوماتية ستكون مشلولة».

وذكر دوين أندرو، المسؤول السابق في البنتاغون، أنّ مستوى التحضير لمكافحة هذا النوع من الهجمات في الولايات المتحدة «سيئ»، وعدّ وليام وولف، رئيس الأكاديمية الوطنية للهندسة الأمريكية، أنّ ضمان أمن الشبكات يستند إلى تقنية «جدار النار» (تقنية لحماية النظام المعلوماتي)، وهي غير فاعلة، وقال في جلسة استماع أمام الكونغرس الأمريكيّ: إنّ «الأمن المعلوماتي الفعلي يجب أن يشمل ردّاً ناشطاً، ونوعاً من الترهيب، وثمناً يدفعه المعتدي، إلى جانب الدفاع الذاتي».

ولقد شهدت أمريكا أوّل حادثة موثقة لعملية «إرهاب الإلكتروني»، عندما قامت وزارة العدل الأمريكية، عام ٢٠١٦، بالتنسيق مع الحكومة الماليزية، باعتقال وترحيل، ثم اتّهام المدعو «أردت فاريزي»، من أصولٍ كوسوفيه، وعمره ٢٠ عاماً، بالدخول (تهكير)على معلومات مهمة لوزارة الدفاع

« دوين أندرو، المسؤول السابق في البنتاغون: مستوى التحضير لمكافحة هذا النوع من الهجمات في الولايات المتحدة «سيئ»»

والحكومة الأمريكية، لأكثر من ١٣٥١ موظفاً حكومياً، وبيع هذه المعلومات لتنظيم داعش في عملية عرفت في وسائل الإعلام باسم «لائحة القتل»، والحكم عليه بالسجن لمدة ٢٠ عاماً.

تجدر الإشارة إلى أنّ الساحة الأردنية شهدت أوّل حادثة من هذا النوع، عندما نظرت محكمة أمن الدولة الأردنية، في ١٣ شباط (فبراير) ٢٠٠٥، وللمرة الأولى، في قضية المتهم مراد خالد العصيدة، البالغ من العمر ١٨ عاماً، عندما قام بإرسال عدة رسائل تهديد لدائرة المخابرات الأردنية، للقيام بعمليات، وادّعاء تحضير سلسلة من الهجمات الإرهابية على بعض المصالح في عمان، باستخدام خدمة (الإنترنت) في أحد المقاهي المخصصة لذلك في مدينة الزرقاء.

جاد الله الجباعي
كاتب سوري

كيف يصنعون الظلام؟.. تفكيك ثالوث الطائفية والتكفير والإرهاب

ما كادت ركائز حصون الاستبداد تتخلخل، وتتراخى أوتار ثالوث حصنه الأول، الدين والجنس والسياسة، بفعل تضحيات المعذبين والمقهورين، وتزايد حالة الوعي الذي كان يصبّ في سلة الخبرة الإنسانية، والتراكم الكمي لكفاح قوى التغيير في العالم والذي مكن البشرية من إرساء أسس نظام يحترم إنسانية الإنسان ويصون حقوقه ويعلي من شأنه، رغم كل ما يعتريه من عيوب ونواقص، حتى اصطدم هذا الجهد بثالوث استبداد آخر يشد أوتار الثالوث الأول ويعضدها. وهو ثالوث قديم جديد أو متجدد، محلي وعالمي في آن واحد، إنه ثالوث الطائفية والتكفير والإرهاب.

يحاول سلامة تفكيك مفاهيم ثالوث؛ الطائفية والتكفير والإرهاب، بمنهجية علمية رصينة تقوم على الاستقصاء التاريخي لجذور تلك الظواهر

ولمّا كان هذا الثالوث اليوم ذا بصمة إسلامية واضحة، أكثر مما كان في أي وقت مضى بعد صعود تيارات الإسلام السياسي في العصر الحديث وازدياد تغلغلها في الاجتماع والسياسة، فقد جعل الباحث عبدالغني سلامة من كتابه «كيف يصنعون الظلام؟» محاولة لتفكيك مفاهيم هذا الثالوث بمنهجية علمية رصينة تقوم على الاستقصاء التاريخي والسوسيولوجي لجذور تلك الظواهر الثلاث، والوقوف على أسبابها وأشكال تمظهرها في الواقع المحلي والعالمي، ورصد مخاطر نتائجها المحتملة، جاعلاً من المقدمة التي تقوم على الربط بين الثالوثين كمدخل لمحاولة فهم الإسلام السياسي قبل التفصيل في ثالوث أركانه: الطائفية والتكفير والإرهاب، التي يضعها محط التحليل والدرس.

نشأة الإسلام السياسي

يشير الباحث سلامة إلى أنّ الإسلام السياسي ليس جديداً إنما يمتد تاريخه إلى عصر الفتنة وظهور الخوارج «كما أنّه ليس تهمة لأحد أو انتقاص من شأنه، إنما هو توصيف للجماعات والأحزاب الدينية التي تعمل في المجال السياسي، والتي هدفها المعلن أو الخفي هو الوثوب إلى السلطة. ولتمييز الإسلام كدين عن الأحزاب التي تعمل تحت غطاء هذا الدين؛ وذلك

غلاف الكتاب

بغية التفريق بين الدين كدعوة وهدى للعالمين، وبين توظيفه السياسي من قبل تلك الأحزاب التي تتستر بغطاء الدين وتسعى لتحقيق أهدافها بالتكفير والتفجير وتشويه الآخرين».

ولم يفت الكاتب أن يميز بين الأحزاب السياسية القائمة على أساس الدين والتي تؤمن بالحوار وقبول الاختلاف وحقائق العصر السياسية، ويقرّ بمشروعيتها السياسية، وبين تلك التي «تؤمن بالعنف منهجاً والقتل وسيلة والتكفير أسلوباً من منطق الاستبداد والقمع» واحتكار الحقيقة؛ حيث أصبح مصطلح الإسلام السياسي أو الأصولية أو الجهادية وصفاً يعني تلك التنظيمات مباشرة، بغضّ النظر عن مصدر الوصف.

« يرى سلامة أنّ جميع تيارات الإسلام السياسي تسعى إلى السلطة الثيوقراطية وأسلمة المجتمع بغض النظر عن أسلوبها»

وفي حين يعد الإسلام السياسي ظاهرة حديثة، لا يتعدى تاريخ نشأتها تاريخ انهيار السلطنة العثمانية وانتهاء الخلافة الإسلامية في أبعد تقدير، فقد اعتبر الكاتب انطلاقتها في النصف الثاني من القرن العشرين؛ إذ ارتبطت ملابسات نشأتها بتلك المرحلة؛ حيث الهزائم المتوالية أمام العدو الخارجي، الأمريكي والإسرائيلي بشكل خاص، واختلال التوازن العالمي بعد انهيار دول المنظومة الاشتراكية، وانتكاس مشاريع النهضة والتحديث، وتحول مشروع التوحيد القومي العربي إلى إقطاعيات عسكرية ذات طابع تسلطي وعنفي وقمعي، وهو ما أفضى إلى تقهقر قوى اليسار الديمقراطي وأتاح لتنظيمات الإسلام السياسي أن تملأ هذا الفراغ مسترشدة بالتجربة الإسلامية الإيرانية ومستفيدة من دعمها. الأمر الذي دفع بتلك التنظيمات التي ابتدأت كحركات سياسية اجتماعية تعاني القهر وتكابد الظلم، نحو الغرق في دوامة العنف، بعد انسداد الأفق السياسي وغياب الأمل وانعدام فرص التغيير بالطرق السلمية.

ولا يخفى أنّ الرافد البشري لتلك الأحزاب والوسط الاجتماعي الذي نشأت ضمنه؛ هو وسط الشباب المهمش، والبيئات الريفية الفقيرة الجاهلة ونصف المتعلمة، بالإضافة لفكر قادتها الذي كان فكراً مغترباً موتوراً، خرج من قهر المعتقلات وقسوة السجون ثم أصبح ذا ارتباطات أيديولوجية وعقائدية «عابرة للحدود ومتناقضة مع القواسم الوطنية الجامعة».

التيارات الدعوية والتكفيرية

وبالرغم من أنّ المؤلف قد ميز في مطلع حديثه بين تيارات الإسلام السياسي الدعوية، وأحزابه وحركاته الجهادية والتكفيرية، لكنه خلص إلى استنتاج أنّ جميع هذه التيارات تسعى إلى السلطة الثيوقراطية وأسلمة المجتمع، بغض النظر عن أسلوبها، سواء كان يعتمد الانقلاب، أو العمل الدعوي السلمي، أو كان بالعنف والتفجير. وعدّها جميعاً مصدر خطر يهدد وحدة المجتمع وكيان الدولة الوطنية ويتناقض مع مشروعها، كما أنّ هذه التيارات لا تقبل الحوار ولا تؤمن بالاختلاف

« يلفت سلامة إلى أن التكفير يقترن بالتعصب والغلو ويخلق حالة من التقوقع على فكرة يتعذر قبول ما سواها ويمهد لممارسة العنف»

ولا بالديمقراطية، ولو أبدى بعضها مرونة وتسامحاً في بعض المواقف الحادة، وهو تسامح المنة لا المساواة، أو قبول بالأمر الواقع إلى حين، بنوع من البراغماتية السياسية.

وهذا ما يرصده سلامة في طائفية هذه التنظيمات، التي تحوّل الطائفة من انتماء اجتماعي طبيعي في مجتمع يقوم على تعدد الانتماءات الأولية الطبيعية، وتنوع تركيبته الاجتماعية، إلى انتماء سياسي هووي ذي طابع أيديولوجي معتقدي، تعتمده كمبدأ سياسي للتمييز والتفضيل بينها وبين الطوائف الأخرى، فيصبح الولاء للطائفة عندها مقدماً على الولاء للوطن. وهو ما يبرز جلياً في تشكيل المليشيات الطائفية التي تنسف مبدأ المواطنة والمساواة وتترك المجال مفتوحاً لاستقدام التدخلات الخارجية، التي لم يتورع الكثير من هذه التنظيمات بالتواطؤ معها.

فالطائفية عبارة عن فكر وفعل انفصالي مهما ادعت غير ذلك، وهي من أجل تبرير الانفصال تدّعي العودة إلى أصول العقيدة الصحيحة، فيما تعمل وتسعى في الحقيقة إلى تشويه وتحريف صورة هذا الدين فضلاً عن تدمير المجتمع المدني نفسه، وتعطيل القانون العام، وتحويل أجهزة الدولة إلى أدوات خاصة بها.

فهل استطاع «الإسلام» أن يوحد خطاب الأحزاب الإسلاموية نفسها على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها قبل أن يدمج قوى المجتمع المختلفة في إطار الوحدة الوطنية؟ وهل هناك حزب إسلامي يقبل في صفوفه من هم من خارج طائفته؟ ألا تجعل هذه الأحزاب من الطائفية «هياجاً مقدساً باسم إسلام يدعي أنه الصحيح، أو فرقة ناجية موعودة دون غيرها بالجنة وتعبِّد طريق جنتها الموعودة بدماء الآخرين وأشلائهم؟»، وفق المؤلف.

التكفير والإرهاب والخوارج الجدد

يلفت سلامة إلى أنّ التكفير يقترن بالتعصب والغلو ويخلق حالة من التقوقع على فكرة يتعذر قبول ما سواها، وهو ما يمهد إلى ممارسة العنف للدفاع

« هل استطاع الإسلام أن يوحد خطاب الأحزاب الإسلاموية نفسها على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها؟»

عن تلك الفكرة ومهاجمة خصومها. وهو ليس ظاهرة جديدة في التاريخ البشري ولا يقتصر على الفكر الإسلامي أو الديانات الإبراهيمية التوحيدية وحسب، إلا أنّ ما وصل إليه التكفير في عصر التنظيمات الإسلامية الجديدة قد فاق ما عرفه هذا التاريخ من قبل. وهو ما يدفع لوضع هذه الظاهرة موضع السؤال، والبحث في العقلية التكفيرية عند تلك التنظيمات، كما سبق وأشار المؤلف من قبل إلى الثالوث المغذي لها..

وإذ يتفق معظم الباحثين على أنّ فكر التكفير قد نشأ عند الخوارج بداية، نتيجة فهمهم الخاص لقضية الإيمان، لكنه عند التحقيق هو موقف سياسي من السلطة والخلافة ونظام الحكم، قبل أن يتحول إلى تنظير فقهي لتبرير الموقف السياسي. وسيجد الباحث دوماً أمامه إشكالية العلاقة بين الديني والسياسي وما بين العقل والنقل. «فمنطق أهل التكفير يقوم على الادعاء بامتلاك العلاقة الحصرية وأحقية امتلاكهم للنص وتفسيره، ولا يجوز لأي إنسان التعامل معه أو فهمه وتفسيره إلا من خلالهم فقط»، وبهذا يضعون أنفسهم في موقع الوصاية على البشرية «القاصرة»، ويكتسب الفقهاء عندهم قداسة لا تقل عن قداسة النص ذاته، ويتعاملون مع العقل «كأنه عقيم أو كائن شيطاني رجيم»، بحسب سلامة.

ومن الطبيعي أن يحول فقهاؤهم النصوص لصالح مشروعهم السياسي، ليكتسب هو أيضاً طابعاً قدسياً من باب قداسة النص نفسه، ويصبح كل من خالف مشروعهم كأنه خالف النص، ويحكمون عليه بالكفر واللعنة والطرد من رحمة الله تعالى، ويبررون قتله وإباحة دمه.

ولعل الأخطر في الأمر هو اعتماد الخطاب التكفيري على الثقافة الشفوية السطحية سهلة التلقي، والتي تخاطب العواطف وتهيج الغرائز وتستقطب الفقراء والجهلة والمهمشين وتجعل منهم أدوات قتل، وتجند منهم جيوشاً من الانتحاريين، وتجعل من قتل المُكَفّرين طريقاً للقاء الحور العين، ويجعل هذا الخطاب التكفير أيديولوجيا سياسية مقنَّعة بلبوس ديني، يقوم على مبدأ الولاء والبراء، ويقسم الناس إلى فسطاط خير وفسطاط

شر، ويقسم العالم إلى دار جاهلية ودار إسلام، وبذلك يصبح إرهاباً صريحاً يبرر خرق دساتير الدول وقتل المدنيين بذريعة «التتريس» واستباحة دمهم وأملاكهم لتحقيق مصالح «جهادية» معينة.

فالتتريس، وفق المؤلف «من المفاهيم التي تعتمد عليها الجماعات الأصولية في تبرير قتل المدنيين الذين يروحون ضحايا التفجيرات العشوائية. وهذا السلوك قاد إلى استجرار التدخلات الخارجية المباشرة في شؤون الدول العربية والإسلامية من قبل الدول الإقليمية، ودول القرار الفاعلة في المعادلة الدولية، وأمريكا بشكل خاص، التي باتت تشن حروبها تحت شعار مكافحة الإرهاب وتتخذ من المسلمين غولاً جديداً بعد غياب الغول الشيوعي وتفرّدها بزعامة العالم الأحادي القطب. فقد بات مصطلح الإرهاب الملتبس التعريف حتى الآن يحتل المرتبة الأولى بين المفاهيم الفكرية والسياسية في الآونة الأخيرة».

يخلص عبدالغني سلامة بعد تحليله الطويل، الذي أغناه بشواهد متعددة من المواقف والوقائع والتاريخ إلى القول: «إنّ الفهم الخاطئ للإسلام واستبداله بأيديولوجيا متشنجة ليس لها من مشروع سوى الموت.. سيؤدي إلى تشويه الإسلام وجعله في معاداة البشرية برمتها، بوجودها ومنجزاتها ومستقبلها، وسيتحول تدريجياً إلى مرجعيات دينية لاهوتية تنتج الانتحاريين وتهدد السلم العالمي ككل»؛ «فثقافة الموت» هي التي تُعّد الانتحاريين الذين جفت في نفوسهم رغبة الحياة وسيطر عليهم اليأس وتمنيهم بالخلاص الأخروي، وتواسي يأسهم وتداعب عواطفهم بأماني غيبية تسول لهم سهولة الموت وسهولة قتل الآخرين.